

الفصل الثاني

الصنعة في النثر الإسلامي

١

الإسلام

يفتح الإسلام صفحة جديدة في تاريخ النثر العربي ، هي صفحة دين قويم بُعث به رسول عظيم ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقل العرب وغير العرب من حياة الفوضى والهمجية والخرافة والوثنية والعداوة والبغضاء إلى حياة مدنية ، قوامها سعادة الجنس البشري وهناءته .

ولا يمضي نحو عشرين سنة حتى يجمع محمد صلى الله عليه وسلم العرب على هذا الدين الخفيف ويستأصل ما كان فيهم من جذور همجية ووثنية وتفكك وتخاصم ، فيصبحوا بنعمة الله أمة واحدة تتعاون على الخير والبر والتقوى ، وينخرقوا إلى الأذقان سُجْدًا خشوعاً لربهم ورهبة من عقابه ورغبة في رحمته التي وسعت كل شيء .

لم يعد العرب قبائل متنازعة ، كما كانوا في الجاهلية ، يقتل بعضهم بعضاً معظمين للدماء مفاخرين بالأحساب والأنساب ، بل أصبحوا جماعة واحدة رُحَمَاء فيما بينهم ، يسند قلوبهم ضعيفهم ، لا يتحاربون ولا يتخاصمون ، بل يتآزرون ويتعاونون ، فلا نهب ولا سلب ، ولا عصبية قبلية ولا دعوة جنسية ، فالمسلمون جميعاً من كل القبائل ومن عرب وغير عرب إخوة لا فضل لغنى على فقير ولا لقوى على ضعيف ، بل هم جميعاً سواء ، ولا شريف ولا مشروف ، ولا حر ولا عبد . كل منهم يرمى أخاه وحقوقه ، وله حرته ، ولكن بحيث لا تمس حرية الآخرين ، فقد حدد الإسلام هذه الحرية بتكاليفه الدينية بما حرم من ضروب الإثم ما ظهر منها وما بطن .

إنه دين سماوي، تَعَسُو فيه الوجوهُ للحيِّ القيُّوم الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، وسَخَّرَ الشمس والقمر كلَّ يجرى إلى أجل مسمى ، ومدَّ الأرض وجعل فيها رَواسىَ وأنهاراً ومن كلِّ الثمرات ، فهو باعث كل حياة . قد أحاطت قدرته كما أحاط علمه بكل شيء ، فهو القاهر فوق عباده (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حَبَّةٌ في ظلمات الأرض ولا رَطْبٌ ولا يابس إلا في كتاب مبين) . وإنه ليعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور ، وقد أعذر رسولهُ الكريمُ وأنذر ، فن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، فإن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها المرء على ما قدَّمت يده ، فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، فلإما الجنة والنعم وإما النار والجحيم . والله مع سلطانه وعدله رحيم ، وعلى المسلم أن يصدع بأوامره ونواهيه في سره وعلنه ، وأن يسير على هدى نبيه وما شرعه للناس ، وأن يأخذ بتعاليمه ووصاياه التي تحقق له السعادة في دنياه وأخراه .

وفي هذا الدين الكريم عقائد تتصل بوحداية الله والإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر ، وأن وراء عالمنا نوعين من الأرواح ، نوعاً خيراً هو الملائكة ، ونوعاً شريراً هو الشياطين . وفي الدين أعمال تتصل بعبادة الله وطاعته ، هي الصوم والصلاة والزكاة وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وإنه ليدعو من آمن به إلى سيرة مستقيمة فلا بغى ولا عدوان ولا فحش ، ولا قتل ولا نهب ، ولا نيمة ولا غيبة ولا كبر ولا فخر ، بل حياة طاهرة نقية ، خلصت من كل الشوائب ، وهي حياة وضع لها الدينُ نظاماً اجتماعياً سديداً يكفل للجنس البشري ما يليق به من كمال . إنها رسالة جليلة ، رسالة لم يؤدها أى دين من الأديان على هذه الصورة المثالية ، ومن ثمَّ لم تؤثر في العرب وحدهم ، بل أثرت في العالم جميعه ، ودانت لها الأمم في مشارق الأرض ومغاربها مقرةً بجلالها وجمالها .

القرآن الكريم

كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، نزل به الروح الأمين على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً مقسّطاً في ثلاث وعشرين سنة ، حتى تستعد القوى البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهي ، وهو معجزة الإسلام الكبرى ، إذ لم يبلغ أى كتاب ديني أو دنيوي ما بلغه من روعة البيان والبلاغة ومَسّ المشاعر وأسْرِ القلوب ، سواء حين يتحدث عن عظمة الله وجلاله أو حين يشرع للناس ما به صلاحُ معاشهم وآخرهم أو يصور لهم الثواب والعقاب والفرْدوس والحجيم ، أو يقص عليهم من أنباء الرسل والأولين ما فيه عبرة ومُزْدَجِرٌ للمؤمنين .

فقد نزل في أسلوب لا يبارى في قوة إقناعه وبلاغة تركيبه ، حتى ليقول الوليد بن المغيرة أحدُ خصوم الرسول وقد سمعه يتلو من آياته : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الإنس والجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطنُلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُنْعَدق »^(١) . ويلاحظ الوليد ملاحظة صادقة ، هي أن القرآن لا يماثل كلام الإنس ولا كلام الجن الذي كان يجري على ألسنة كهانهم ، فهو طراز وحده ، له سحره البياني ، بل له إعجازه الذي انتظعت آمالُ العرب دونه في محاكاته أو الإتيان بشيء على مثاله في السيطرة على الألباب والقلوب . وقد تحدّأهم جل وعز أن يجمعوا أمرهم وكيدهم فيأتوا بسورة من مثله أو بسور تحاكيه ، فعجزوا وذلوا ، يقول سبحانه : (قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ويقول تبارك وتعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . ويشرح ذلك الجاحظ فيقول :

« بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام في زمن أكثر ما كانت العربُ

(١) انظر تفسير الزمخشري في سورة المدثر ،

ومصدق : كثير المياه .

فيه شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عُدَّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، دعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذى يمنعمهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والخبيرة نصبوا له الحرب ونصب لهم . . وهو فى ذلك محتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء إلى معارضته إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة . فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريباً لهم بعجزهم عنها قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فهاتوا ولو مفتريات ، فلم يترم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر . ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوُجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وناقض . فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض الشعراء من أصحابه والخطباء من أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه عن بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الأموال . وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والفضل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصائد الموجزة ، ولهم الأسجاع واللفظ المنثور . ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدنائهم ، فمحال - أرشدك الله - أن يجتمع هؤلاء كلهم فى الأمر الظاهر والخطاب المكشوف البين مع التقريع بالتقصير والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد أعمالهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة كذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل وهم يبذلون أكثر منه .

وكان طبيعياً أن يستكين العرب أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة والبيان ، وهى ذروة ليس لها فى اللغة العربية سابقة ولا لاحقة ، ذروة جعلت العرب

حين يستمعون إلى آية تعنو وجوههم لربهم ويخرون رُكعاً وسُجّداً مشدوهين بجماله مبهورين ببلاغته، وفي ذلك يقول جل وعز : (الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُثَابَهاً مَثَانِي تَقْشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) ويقول : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتَهُ خاشعاً متصدعاً من خشية الله) . ولا يزال هذا الشعور الذي كان يَخْتَلِجُ في قلوب العرب الأولين تخفق به القلوب في كل عصر لما يفتح من آفاق العالم العلوي ، ولما يؤثر به في صميم الوجدان الروحي . وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعراً ولا نثراً مسجوعاً ، وإنما هو نظم بديع ، فُصِّلَتْ آيَاتُهُ بِفَوَاصِلٍ تَنْتَهِي بِهَا وَتَطْمَئِنُّ النَّفْسُ إِلَى الْوَقُوفِ عِنْدَهَا . وتتنوع الفواصل بين طوال وقصار ومتوسطة بتنوع موضوعاته وتنوع المخاطبين ، فقد كان يغلب عليه الإيجاز والإشارة في بدء الدعوة قبل الهجرة ، حين كان يدعو إلى عبادة الله وينذ الديانة الوثنية ، والإيمان بالبعث والنشور ، فلما انتقل الرسول عليه السلام إلى المدينة غلب عليه البسط والإطناب لبيان نُظْمِ الشريعة وما ينبغي أن يكون عليه نظام الحياة الاجتماعية ، مما تقتضيه مصالح البشر في حياتهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

وقد أثار هذا الكتاب العظيم أثراً بعيدة في اللغة العربية ، فقد حوّل أدهبا من قصائد في الغزل والحماسة والأخذ بالثأر والفخر ووصف الإبل والخيل والسيوف والرماح ، ومن حكم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام ، إلى أدب عالمي يخوض في مشاكل الحياة والجماعة ، وينظّم أمورها الدينية والدنيوية . فارتقى الأدب العربي رقيماً لم يكن يحلم به العرب ، واتسعت آفاقه . وعادة يشير مؤرخو هذا الأدب إلى بعض ألفاظه التي ابتدأها ابتداء مثل القرآن والفرقان والكافر والمشرک والمناقق والصوم والصلاة والزكاة ، فمدلولات هذه الألفاظ لم تكن حتى كان ، والحق أنه جميعه بألفاظه ومعانيه المختلفة يُعَدُّ ابتداءً ، بما علّم العرب من أسس الإسلام ومبادئه وبما بيّن لهم من ماهية الحياة بعد الموت ومن البعث والنشور ورسالة الرسل وعبادة الله الواحد الأحد ، وبما نظم لهم من حياتهم في الأسرة والجماعة تنظيماً مادياً وأدبياً وعقلياً وروحياً ، تنظيماً يكفل لهم الكمال

البشرى والسعادة في الدارين. وعلى نحو ما جمع العرب على دين واحد جمعهم على لهجة واحدة من لهجات اللغة العربية ، هي لهجة قريش ، وكانت قد سادت في الجاهلية على لهجات القبائل العدنانية الشمالية، فأتم لها هذه السيادة على لهجات القبائل اليمنية الجنوبية وكانت هي التي حملها العرب معهم في فتوحاتهم، فانتشرت في العالم الإسلامي جميعه من الصين والهند إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس ، إذ كانت تلاوته فَرَضاً مكتوباً على المسلمين ، قال جل شأنه : (وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) وقال : (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) وبذلك كان للقرآن الكريم الفضل العظيم في حفظ اللغة العربية وذيوعها وانتشارها في ملايين الناس مدى أجيال متعاقبة بل مدى قرون مترادفة إلى اليوم .

فالقرآن هو الذي حفظ اللغة العربية القرون المتطاولة السابقة ، وقد حول العربي من إنسان جاهل يؤمن بالخرافات إلى إنسان محب للعلم مشغوف بالمعرفة ، يطلبها أينما كانت ، ولم يلبث أن فتح له الأرض ، فدخلت إلى العربية أم شاركت في لسانها وأدبها ، وتعاونت في تلك النهضة الروحية والاجتماعية والأدبية والعلمية . ومن الحق أن كل ما كسبته لغتنا من آداب في الشعر والنثر ومن علوم شرعية ولسانية وعقلية فلسفية، إنما كان بفضل القرآن، بل لقد تعدت آثاره لغته العربية إلى لغات الأمم الإسلامية التي لا تنطق بلغته . ولنتصور العرب لم يرسل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولا تنزل فيهم الذكر الحكيم إذن لما فارقت لغتهم جزيرتهم ولظلوا وثنيين في تنابد وشقاق وحروب طاحنة ، بل لعل لغتهم كانت قد اندثرت كما اندثرت لغات قديمة كثيرة ، فالقرآن هو الذي نفخ في روحها ، وهو الذي أتاح لها الحياة على توالى القرون ، وهو الذي نقلها من لغة بداية إلى لغة مدنية ، حتى أصبحت لغة عالمية للأمم كثيرة اتخذتها لسان ثقافتها وآدابها . ولا يوجد في تاريخ البشرية كتاب له هذه الآثار العظيمة في لغته وتغيير أحوال من آمنوا به ، بل هو يقف وحده في هذا الباب ، إنه مفخرة العرب ومعجزة الإسلام وآيته الباهرة .

الحديث النبوي

حديث الرسول صلوات الله عليه هو الأصلُ الثاني للإسلام ، وهو يشمل كل ما جاء عنه من قول أو فعل أو تقرير ، وقد يسمّى ذلك السنة . وترجع أهميته إلى أنه يتم القرآن في بيان أحكام الشريعة الإسلامية ، فالصلاة مثلا ذُكرت في القرآن مجملة ، فبيّن الحديث كيفيتها وأوقاتها ، وكذلك الشأن في الزكاة فإن الحديث هو الذي بين قواعدها التي يجب اتباعها في جمعها وتوزيعها . وهناك آيات في الذكر الحكيم يحتمل وجوهاً مختلفة من المعاني ، والحديث هو الذي يشرح المراد منها . وهذا إلى كثير من شئون الدين التي يستقل الحديث ببيانها .

ومنذ عصر الرسول يهتم المسلمون بالحديث عملاً بقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة) فكانوا يأتئون به كما كانوا يأتون بالقرآن الكريم وما شرع لهم . ويدل على ذلك أكبر الدلالة ما يُروى من أن الرسول حين أرسل مُعاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : بسنة رسوله^(١) . فرواية الحديث كانت معروفة في حياة الرسول ، وكانت كل قبيلة تأخذ معها معلماً يعلمها القرآن والسنة النبوية . وكثيراً ما كان يعقّب الرسول على أحاديثه وخطبه بقوله : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب »^(٢) . ولما توفي الرسول ، ودخل الموالي في الإسلام أخذوا يحاولون معرفة كل شأن من شئون الرسول ، ليقنطوا به ، ولم يكن العرب يقلّون عنهم شغفاً بتلك السيرة العاطرة .

كل ذلك دفع المسلمين إلى رواية الحديث ، غير أنه لم يدوّن بصفة عامة إلا على رأس المائة الأولى للهجرة ، أما قبل ذلك فكان هناك من يدونونه ومن لا يدونونه . وتُروى عن الرسول أحاديث مختلفة يدعو بعضها إلى تدوينه ،

(١) انظر مختصر جامع بيان العلم وفضله (٢) راجع مثلا خطبة حجة الوداع في البيان لابن عبد البر (الطبعة الأولى) ص ١٢٦ . والتبيين ٣٣/٢ .

ويدعو بعض آخر إلى عدم تدوينه^(١) ، وإعله كان يخشى إن دُونََ أن يختلط بالقرآن أو أن يشغل المسلمين عنه . وفي الوقت نفسه لم يجد مانعاً في بعض الأحيان من أن تكتب عنه بعض الأحاديث التي تتعلق بالأحكام . وإذا انتقلنا إلى عصر الصحابة وجدناهم يكرهون غالباً تدوين الحديث^(٢) . بينما يعنون بروايته ، وأشار نضر منهم على عمر أن يدونه ، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكتبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً^(٣) . ومضى الصحابة لا يدونون الحديث تدويناً عاماً مكتفين بروايته ، وظلت هذه هي الفكرة الشائعة في عصر التابعين^(٤) ، ولكن بمضى الزمن تزداد الرغبة في تدوينه ، حتى إذا كان عهد عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى للهجرة رأيناه يأمر بتدوينه^(٥) ، ولا مشاحة في أن أول من دونه تدويناً عاماً هو ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٣هـ . ومنذ هذا التاريخ أخذ تدوين الحديث يتسع ، وأخذ يصنّف ويؤبّ على الأحكام الفقهية ، حتى يسهل الرجوع إليه في أمور الدين ، على نحو ما نجد في كتاب «الموطأ» للإمام مالك إمام أهل المدينة المتوفى سنة ١٧٩ للهجرة ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث حتى يضع فيه ابن حنبل مسنده الكبير ، وتتلوه كتب الصحيح الستة ، للبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه والنسائي .

ووضع حول الحديث منذ العصر الأول في روايته سياج محكم ، حتى لا يدخل فيه النضع والانتحال ، وحتى تظل الثقة قائمة به ، وخاصة لأنه

- | | |
|---|--|
| (١) انظر تقييد العلم للخطيب البغدادي | (٤) نفس المصدر ص ٤٥ وما بعدها و ص ٩٩ وما بعدها . |
| (٢) طيبة يوسف العث (ص ٢٩ وما بعدها و ص ٦٥ وما بعدها . | (٥) الزرقاني عل موطأ مالك (طبع المطبعة الخيرية) ١٠/١ . |
| (٣) نفس المصدر ص ٣٦ وما بعدها . | |
| (٤) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها . | |

تأخر تدوينه تدويناً عاماً . وقد كُفّل له من ذلك ما يملؤنا إعجاباً بعلمائه ورواته ، فقد اشترطوا شروطاً كثيرة في حملته ، وأقاموا من أجله علماً برأسه ، يسمى مصطلح الحديث ميزوا فيه بين أنواع صحيحة وضعيفه ، كما ألفوا كثيراً في رجاله ورواته ، حتى يقفوا على درجة صدقهم . وقد أفردوا لضعيفه كما أفردوا لصحيحه مؤلفات كثيرة على نحو ما صنع ابن حبان وغيره ، وكذلك أفردوا مؤلفات لموضوعاته ومفترياته على نحو ما صنع السيوطي في كتابه (اللائي المصنوعة) .

وبذلك حافظ المسلمون على حديث الرسول صلوات الله عليه ، وإن كانوا قد أجمعوا على أنه في جملته رُوِيَ بالمعنى ولم يرو باللفظ ، بسبب تأخر تدوينه ، ولعل ذلك ما جعل علماء الكوفة والبصرة وبغداد لا يحتجون به في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد النحوية واللغوية التي دونوها ، فقد تداوله الأعاجم والمولدون قبل تدوينه تدويناً عاماً .

والذي لا شك فيه أنه عليه السلام لم يكن ينطق إلا عن ميراث حكمة ، وأنه أوتي جوامع الكلم ، وكان يكره الإغراب في اللفظ والتعسف والتكلف ، ويكنى في بيان روعة تعبيره وبلاغة كلامه وتراكيبه ما يقوله الجاحظ في كتابه البيان والتبيين من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيد بالتأييد ويُسرّ بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حُسْن الإفهام وقلة عدد الكلام . . لم تسقط له كلمة ولا ذلّت به قَدَمٌ ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ، بل يَبْدُ الخُطْب الطوال بالكلم القصار . . ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج^(١) إلا بالحق ولا يستعين بالخيالة . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقفاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه

(١) الفلج : الفوز والظفر .

صلى الله عليه وسلم»^(١) . وقد تداول العرب والمسلمون من كلماته الجامعة بعض أمثال لم يتقدمه فيها أحد ، من ذلك قوله^(٢) :

مات حتف أنفه^(٣) - كل الصيد في جوف الفراء^(٤) - إذن لا ينتطح فيها عثران - يا خيل الله اركبي - لا يُلْسَعُ المؤمن من جحر مرتين - هُدْنُه على دَحْن^(٥) وجماعة على أقداء - الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة^(٦) - إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى^(٧) - إياكم وخضراء الدمن^(٨) - الآن حمى الوطيس^(٩) .

على أنه ينبغي أن نعرف أن الأمثال لم يعد لها منذ ظهور الإسلام خطورتها في تاريخ النثر العربي ، فقد تغيرت الحياة العربية من قواعدها ، ولم تعد تحتكرها الأمثال ، إذ أخذ العرب يُشْعَلُونَ عنها بتلاوة القرآن ورواية الحديث ، واتخذوا منها عبرتهم وموعظتهم ، وحتى الشعر كَفَّ كثيرون من شعرائهم عن نظمه^(١٠) .

-
- (١) البيان والتبيين ١٧/٢ .
 (٢) نفس المصدر ١٥/٢ وما بعدها والحيوان ٣٣٥/١ وزهر الآداب للحصري (طبعة المطبعة الرحمانية) ٢٣/١ وجمع الأمثال للميداني ٧/١ ، ٢١/١ .
 (٣) مات حتف أنفه : أى على فراشه من غير قتل في الوغى .
 (٤) الفراء : حمار الوحش ، يضرب مثلاً في نقاسة الشيء أو الشخص .
 (٥) دخن : حقد .
 (٦) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .
 (٧) المنبت : المسرع بناقته حتى عطيت فلم يقض حاجته ولا سفره . والظهر : الناقة التي يركبها .
 (٨) الدمن : البحر المتلبد . وهو مثل يضرب تنفيراً من المرأة الحسنة تنشأ في منبت السوء .
 (٩) الوطيس : التنوير ، يضرب مثلاً على اشتداد الحرب .
 (١٠) أغاني (طبعة السامى) ٩٤/١٤ .

الخطابة في صدر الإسلام

الرسول صلى الله عليه وسلم أخطبُ العرب قاطبة ، وقد كان يخطب في قريش كثيراً يدعوها إلى دينه الحنيف^(١) والدخول في طاعة الله ومحبته ، ولما هاجر إلى المدينة أصبحت الخطابة فريضة مكتوبة في صلاة الجمعة والعيدين . وبذلك عرف العرب ضرباً منظماً من الخطابة الدينية لم يكونوا يعرفونه في الجاهلية ، إذ كانت خطابهم - كما أسلفنا - اجتماعية ، وكانت تدور غالباً على المنافرات والمفاخرات ، وقد دعا الإسلام إلى نبذ التفاخر والتكاثر بالأحساب والأنساب ، ومن ثمّ اختفى من حياتهم هذا اللون من الخطابة

وتحتفظ كتب الحديث الصحيحة^(٢) بتقاليد الرسول صلوات الله عليه في خطابته سواء في صلاة الجمعة أو صلاة العيدين ، إذ كان يخطب في الصلاتين خطبتين يجلس بينهما ، وكانتا تدوران على تبين ما شرع الله لعباده في شئون دينهم ودنياهم وما ينبغي أن يسود مجتمعهم من مثالية خلقية رفيعة ومن روابط اجتماعية وثيقة . وبجانب ذلك كان الرسول يخطب في الأحداث وعند المناسبات . ومن المحقق أنه خلف تراثاً ضخماً من الخطب ، غير أن ما احتفظت به كتب الأدب والتاريخ من ذلك قليل ، ولا ترجع قلته إلى قِصر خطبه ، فقد كان يطيل خطبه أحياناً وفي بعض المناسبات إلى ساعات^(٣) يعظ الناس ويدعوهم إلى التفكير في الكون وخالقه ومدبره . وأكبرُ الظن أن خطبه أصابها ما أصاب خطب الجاهلية ، فإنها لم تدوّن حينها ، وبعُد العهد بين عصرها وعصر تدوينها . ومع ذلك فقد احتفظت ذاكرة الرواة ببقايا منها تحمل لنا خصائصها ، من ذلك

(١) السيرة الحلبية ١/٣٧٩ .

ص ٤٠ .

(٢) انظر كتاب الجمعة في صحيح البخاري

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٤ .

ومسلم والتنبيه للشيرازي (طبعة ليدن)

أنه خطب بعشر كلمات : حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال (١) :
 « أيها الناس ! إن لكم معالمَ فأنتموا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فأنتموا إلى
 نهايتكم ، إن المؤمن بين محافتين : بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ
 به ، وبين آجل قد بقى لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه
 لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشَّيْبَةِ قبل الكِبَرَةِ ، ومن الحياة قبل الموت .
 فوالذي نفسُ محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب ، ولا بعد الدنيا من دار
 إلا الجنة أو النار . »

والخطبة على قصرها توضح لنا كيف كان الرسول يعظ أصحابه ويدفعهم
 دفعاً إلى العمل الصالح ، قبل أن يلدوا داعي الموت . فتبور تجارتهم ويذهب
 هباءً عملهم ، وإنهم لمعرضون على ربهم ، فوفدُون حسابهم ، فأما من اتبع
 هدى الإسلام فصيره الجنة التي وصفها القرآن الكريم فأسهب في وصفها ،
 وأما من أعرض وتولى ولم يذكر اسم ربه ولا صَلَّى . ولا أخلص عمله لوجهه
 فصيره النار التي أطنب القرآن في بيان عذابها .

ولم تكن خطبه مواعظ فحسب ، بل كانت أيضاً تشريعاً وتنظيماً لحياة
 هذه الأمة التي أخرجت للناس في خير مثال تأمر بالمعروف وتنهاه عن
 المنكر ، ويتعاون أفرادها على البر والخير مما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعاتهم .
 ولعل خير خطبة تشريعية تصور كيف كان ينظم هذا المجتمع الروحي ويُرسى
 قواعده خطبته في حجة الوداع ، وهي تمضي على هذا النحو (٢) :

« الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور
 أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضَلِّ اللهُ فَلَا هَادِيَ
 لَهُ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .
 أوصيكم ، عبادَ الله ، بتقوى الله وأحسُّكم على طاعته ، وأسْتَفْتَحُ بِالَّذِي هُوَ

(١) انظر كتاب البيان والتبيين ١/٣٠٢ . (الجلي) ٤/٢٥٠ والمقد الفريد (طبعة لجنة

(٢) نفس المصدر ٢/٣١ وانظر كتاب الجمعة

في صحيح البخاري والسيرة لابن هشام (طبعة

خير . أما بعد، أيها الناس! اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري ، لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلَّغتُ ؟ اللهم اشهد .

فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدّها إلى الذي ائتمته عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع^(١) ، وإن أول رباً أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب - وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب - وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة^(٢) والسقاية^(٣) . والعمدُ قودٌ^(٤) ، وشبهه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحفرون من أعمالكم . أيها الناس (إنما النسيء^(٥) زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلون عاماً ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله فَيُحِلُّوا ما حرم الله) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ : ثلاثة متواليات وواحد فرُد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم ، ولا يُدخِلن أحداً تكروهونه بيوتكم إلا بإذنكم ،

(٥) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، وعاماً يحلونه إذا أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد صفر ويؤجلونه .

(١) موضوع : ساقط ، ومحرم .
 (٢) السدانة : خدمة الكعبة .
 (٣) السقاية : سقاية قریش للحجاج .
 (٤) العمد : القتل المتعمد ، القود : قتل القتال يقاتله .

ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(١) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح^(٢) ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان^(٣) ، لا يمكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بلَّغتُ ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ولا يحلُّ لامرئٍ مسلمٍ مالٌ أخيه إلا عن طيب نفسٍ منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كُفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتابُ الله . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهدُ الغائبَ .

أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحجر^(٤) . من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مؤاليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرْفٌ^(٥) ولا عدلٌ . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وواضح أن الخطبة تبدأ بحمد الله واستغفاره والتوبة إليه والاستعاذة من شرور النفس وسيئات العمل ونقائصه ، وتقرن بالشهادتين ، وتوصية المسلمين بعبادة الله وطاعته ، كما تقرن بكلمة « أما بعد » . ويمضي الرسول عليه السلام

(١) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .
 (٢) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .
 (٣) عوان : جمع عانية ، وهي الأسيرة أي هن عندكم بمنزلة الأسرى .
 (٤) للفراش أي لصاحبه ، فهو ينسب إليه ،
 (٥) صرف : انصراف ، عدل : عدول . أي لا يقبل منه شيء .

فبين أن دماء المسلمين حرام كأموالهم ، فلا قتل ولا نهب ولا سلب ، فقد انتهى قتل النفس المحرمة وانتهى قطع الطرق ، وانتهت الحيانات بجميع ضروبها ، فن كانت عنده أمانة لا يخنها ، بل فليؤدها مستوفاة إلى صاحبها . إنه مجتمع ديني جديد ، تتوثق فيه الروابط ، فلا ربا ولا أخذ بثأر ، وقد تداعت مآثر الجاهلية سوى سدانة الكعبة وسقاية الحجيج ، فهما مآثرتان ضروريتان للجماعة ، وهما لذلك باقيتان . أما شريعة الأخذ بالثأر التي كانت قوام حياتهم في الجاهلية ، فقد قُضِيَ عليها الإسلام ، إذ جعل حق الدم للدولة ، فالقاتل المتعمد تقتله الدولة بصاحبه ، أما من قتل خطأ فديته مائة ناقة لا تزيد . ويخوفهم الرسول من الشيطان وما يدعو إليه من الشرور فقد انتهت عبادته ، ولكن لم تنته أطماعه في تضليل الناس عن الجادة . وأيضاً فإنه انتهى عهد التلاعب في الدين وفي الأشهر الحرم .

ولا ينظم الرسول العلاقات بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة فحسب ، بل ينظمها أيضاً بينه وبين جماعته الصغرى من الأسرة ، ويدعو إلى رعاية حقوق المرأة ، وأن يعاملها الرجل برفق ورحمة ، وقد رفع الإسلام من شأنها ووضعها في المكان اللائق بها ، فكفل لها حرية التصرف في مالها كما كفل لها حق اختيار زوجها .

ويدعو الرسول إلى دعم الروابط بين أفراد الأمة ، فالمسلمون جميعاً إخوة متساوون في الحقوق والواجبات ، لا غنى ولا فقير ولا أسود ولا أبيض ، ولا عربي ولا عجمي ، فالجميع سواء ، ولا فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . ويشير إلى ما شرعه القرآن من نظام التوريث الجديد ، ويقرر أن المورث لا يحق له أن يجرم ورثته من ماله ، ويعطيه شيئاً من الحرية ، فيجعل له الحق أن يوصي لورثته ببعض ماله ، ولكن على أن لا يزيد عن ثلثه . ويعرض لمشكلة كبرى من مشاكلهم ، هي الأبناء غير الشرعيين الذين وُلدوا في الجاهلية ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش . وكان من عادتهم أن يُنسبوا إلى غير آبائهم ، فقضى على تلك العادة السيئة حفظاً للأنسب .

وعلى شاكلة الخطبتين السالفتين كانت خطابة الرسول ، فهي إما موعظة حسنة وترغيب وترهيب وبيان لمسئولية المسلم الخلقية وأنه محاسب بين يدي ربه عن كل ما قدم في حياته ، وهو يضع ذلك أمام عينيه ليصلحه ويقوم نفسه ويسمو به في مراقى الكمال . وإما تشريع وتنظيم لمجتمعهم وما ينبغي أن يسود فيه من عوامل الخير ودواعيه ، فالمسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، فلا بغى ولا عدوان ، بل تآزر وتعاون في قيام هذا المجتمع السليم .

ومن المحقق أن الرسول كان في خطابته - كما كان في حديثه - لا يستعين بخلاصة ولا تزويق ، وقد برئت ألفاظه من الإغراب والتعقيد والاستكراه ، وهي مع ذلك ألفاظ جزلة لها بهاء ورونق ، تعمر بها القلوب والصدور وترتاح إليها الأسماع والأفئدة ، فتجتمع لها النفوس المتباينة الأهواء وتساق إليها بأزمها ، إذ تلتحم بمعانيها وما تدعو إليه من سبيل الرشاد ، وهي - بلا ريب - مثل أعلى في البراعة والدقة ، ونقصد دقة الحس ولطف الشعور ، ولعل مما يدل على ذلك قوله: « لا يقولنَّ أحدكم خَبِئَتْ نَفْسِي وَلَكِنْ لِيَقْبَلْ لِقَيْسَتْ نَفْسِي »^(١) فقد كره أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه . ونؤمن بأن هذه العناية بحسن منطقته لم تكن نتاج تحبير أو تفكير إنما كانت نتاج ما خوله الله من نعمته في بيانه الرائع .

وليس في خطبتي الرسول السالفتين سجع ، ومن المؤكد أنه لم يكن يستخدم السجع في خطابته ، بل كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له في الجاهلية على نحو ما مر بنا في الفصل السابق ، ولذلك صَدَّ عنه كما صَدَّ عنه خلفاؤه . رَوَى الطبري أن عمر بن الخطاب سأل صحابرا العبدىَّ البليغ المشهور عن مكران الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال صحار : « يا أمير المؤمنين ! أرض سهَّلُها جبال ، وماؤها وشَّل (٢) ، وتمرها دَقَل (٣) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قَلُّوا بها

(١) الحيوان للجاحظ ٣٣٥/١ ولقت (٢) وشل : قليل .
النفس : غث .
(٣) دقل : أردأ التمر .

ضاعوا . فقال عمر : أسجّاعٌ أنت أم مخبر ؟ فقال صحار : بل مخبر «^(١)» .
 وواضح أن عمر أنكر عليه استخدامه للسجع في كلامه . ويروى الرواة أن
 عبد الله بن الزبير تكلم بكلام مسجوع عند معاوية ، فقال له : « تعلمت
 السجّاعة عند الكبر »^(٢) . وفي أخبار معاوية أنه كتب إلى رجل كتاباً ،
 فأملى على كاتبه : « هو أهونُ عليَّ من ذرّة ، أو كلب من كلاب الحرّة »
 ثم استدرك قائلاً لكاتبه : « امحُ من كلاب الحرّة واكتب من الكلاب »^(٣) .
 فالخلفاء كانوا يكرهون السجع لنهي الرسول ، صلوات الله عليه عنه . وليس
 معنى ذلك أنه انمحي محوّاً من خطابة هذا العهد ، فالجاحظ يقول : « كانت
 الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة »^(٤)
 ومن يرجع إلى حروب الردة يرى بعض المنتبئين مثل مسيلمة الكذاب يتكهنون
 ويسجعون في كهانتهم ، وكان مسيلمة خاصة « يسجع السجاعات ، ويقوطا
 مضاهاة للقرآن »^(٥) ويقول الجاحظ إنه « عمداً على القرآن فسلبه وأخذ بعضه
 وتعاطى أن يقارنه »^(٦) .

وقد انتهت هذه الموجة من سجع المنتبئين بانتهاء حروب الردة ، ولكن
 السجع بعامة لم ينته معها تماماً فقد ظلت الخطباء تسجع بين يدي الخلفاء
 على نحو ما يلاحظ الجاحظ .

وإذا نظرنا فيما أثر من خطب عند أبي بكر الصديق ومن تبعه من الخلفاء
 الراشدين وجدناهم يقتدون بالرسول في خطاباتهم ، فهم لا يستخدمون السجع
 فيها ، وهم يفتتحونها بحمد الله وتمجيده والصلاة على رسوله ويوشّونها بآيات من
 القرآن الكريم وبيعض أحاديث نبيه العظيم ، مستمدين من هذين النبيين
 العزيزين في وعظهم وفيما يسوقونه من وصايا وتعاليم . وكان الصديق في الذروة

(١) الطبري ، القسم الأول ص ٢٧٠٧ وانظر
 البيان والتبيين ١/٢٨٥ .
 (٢) البيان والتبيين ١/٣٠١ والعقد الفريد
 ٤/٣٦٨ والسجاعة : مصدر سجع .
 (٣) رسائل الجاحظ (طبعة الساسي) ص ١٥٥ .
 (٤) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .
 (٥) الطبري ، القسم الأول ص ١٧٣٨ ،
 ١٩٣٤ .
 (٦) الحيوان ٤/٨٩ .

من البلاغة ومن البيان والفصاحة ، ومن خطبة له (١) :
 « ألا إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة المملوك . . ألا إن الفقراء هم المحرومون ،
 ألا وإنكم اليوم على خلافة النبوة ومفترق المحجة (٢) . وإنكم سترون بعدى مملوكاً
 عضواً (٣) ، ومملوكاً عنوداً (٤) ، وأمة شعاعاً (٥) ، ودما مفقاحاً (٦) ، فإن كانت
 للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة ، يعفوها الأثر ، وتحيا بها الفتن وتموت لها
 السنن ، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة ، ولا تفارقوا
 الجماعة » .

وكان كثيراً ما يخطف في الجيوش الخارجة إلى الغزو فيوصيها ويوصي قادتها
 باتباع هدى الإسلام وبالجهاد في سبيله وله وصية مشهورة يوصي فيها عمرحين
 استخلفه عند موته بتقوى الله واتباع الحق حتى لا يُلقي بيده إلى التهلكة (٧)
 وهو في كل ما أثر عنه يحسن اختيار لفظه ، في أسلوب مرسل يشف عن دقة
 حسه ومعرفته بمواضع الكلم ، ولعل مما يدل على ذلك أنه مرّ برجل معه ثوب ،
 فقال له : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا ، عافاك الله ، فقال أبو بكر : لقد علمت
 لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله (٨) .

وكان عمر بن الخطاب مثل صاحبه في الألفق الأعلى من روعة البيان
 والخطابة ، وله خطب تدور في كتب الأدب والتاريخ نكتفي منها بهذه القطعة (٩) :
 « اقدِّعوا (١٠) هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طُلعة (١١) ، وإنكم إلا تقدعوها
 تنزع بكم إلى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور (١٢) . إن هذا

(١) البيان والتبيين ٤٣/٢ وانظر عيون الأخبار ٢٣٣/٢ والعقد الفريد ٥٩/٤ وما بعدها .
 والعقد الفريد ١٤٨/٣ وراجع وصايا الهريزية لقواد جيوش في عيون الأخبار لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها .

(٢) المحجة : الطريق .
 (٣) عضوض : شديد فيه عسف .
 (٤) عنود : طاغ .
 (٥) شعاع : متفرقة .
 (٦) مفاح : سائل مهراق .
 (٧) البيان والتبيين ١/٢٦١ .
 (٨) البيان والتبيين ١٣٨/٣ وقارن ٢٩٨/١ .
 (٩) اقدعوا : أهوا وكفوا .
 (١٠) طلعة : تتطلع إلى كل شيء .
 (١١) الدثور : الدروس .

(١٢) انظر الوصية في البيان والتبيين ٤٥/٢

الحق ثقيل مرىء^(١) ، وإن الباطل خفيف وبيء^(٢) ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

وله وصايا كثيرة يوصى فيها قواد الجيوش الفاتحة بمجنودهم وبمن يغزونها من الأمم ، ومن أروع وصاياه وصية للخليفة من بعده ، ونسوق منها بعض نصائحه له ، يقول^(٣) :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً : أن تعرف سابقتهم . وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً فلإنهم رداء^(٤) العدو وجباة الأموال والتيء^(٥) لا تحمل قبيئهم إلا عن فضل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيراً . فلإنهم أصل العرب ومادة الإسلام : أن تأخذ من حواشي^(٦) أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم . وأوصيك بأهل الذمة^(٧) خيراً : أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم . وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ومحافة مقتته أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله . وأوصيك بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم^(٨) ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . . وآمرك أن تشتد في أمور الله وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم . . واجعل الناس سواء عندك لا تبالى على من وجب الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك . »

- (١) يقصد عمر أنه حميد العاقبة .
 (٢) يقصد أنه وخيم العواقب .
 (٣) البيان والتبيين ٤٦/٢ وانظر في وصاياه للجيوش عين الأخبار ١٠٧/١ .
 (٤) رده : معين أي يعينون على العدو .
 (٥) التيء : الغنيمة في الحرب ، والحراج .
 (٦) حواشي الأموال في البادية : صفار الإبل والنعم .
 (٧) أهل الذمة : أهل الكتاب في البلاد المفتوحة .
 (٨) الثغور : جمع ثغر وهو هنا الخلة والحاجة .

والوصية طويلة ، وهي أشبه بدستور قديم ، يضمه عمر مواد الحكم كما في شريعة الله وسنة رسوله ، وهي تجرى - شأنها شأن خطبه - في هذا الأسلوب الناصع البريء من الفضول ومن التكلف ، والذي يملأ السمع بجزالته وورصاته وقوته ، وكان خطيباً لا يبارى في مخارج كلامه ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدقيه شاء^(١) . ولم يكن عثمان يبلغ من الفصاحة والبيان مبلغ صاحبيه ، ويروى أنه صعد المنبر ذات يوم ، فأرْتَجَّ عليه ، فقال : « إن أبا بكر وعمر كان يُعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أخرج منكم إلى إمام خطيب »^(٢) .

أما على بن أبى طالب فإنه لم يكن يقل عن أبى بكر وعمر شأواً في خطابته ، وقد أثرت عنه خطب كثيرة ، ولا نقصها الخطب التى يكتويها بين دفتيه كتاب « نهج البلاغة » فأكثره مصنوع ومحمول عليه . وقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء ، واختلفوا هل هو من عمل الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ للهجرة أو هو من عمل أخيه الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ للهجرة ، يقول ابن خلكان فى ترجمة أولهما بكتابه وفيات الأعيان : « قد اختلفت الناس فى كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضى ، وقد قيل إنه ليس من كلام على ، وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه » . ويردد هذا الكلام اليافعى فى مرآة الجنان^(٣) وابن العماد فى شذرات الذهب^(٤) ، ويؤكد الذهبى فى ميزان الاعتدال أن الشريف المرتضى هو الذى وضعه^(٥) ، ويذهب مذهبه ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان ، يقول : « من طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، ففيه السبُّ الصراح والخطأ على السيدين :

(١) البيان والتبيين ١/٦٢ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٤٥ وانظر عيون

الأخبار ٢/٢٣٥ والمعد الفريد ٤/٦٦

وزهر الآداب ١/٣٦ .

(٣) مرآة الجنان (طبعة حيدرآباد) ٣/٥٥

(٤) شذرات الذهب (طبعة القاهرة)

٣/٢٥٧ -

(٥) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو)

٢/٢٠١ .

أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل^(١) . ويذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى^(٢) ، وهذا هو الصحيح بشهادة الرضى نفسه وشهادة شراح كتابه ، فقد ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسمه باسمه نهج البلاغة^(٣) كما ذكر ذلك في كتابه « مجازات الآثار النبوية »^(٤) وتجد ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ في شرحه للكتاب يعترف بأن خطبته من عمل الشريف الرضى ، ويذهب ابن ميثم البحراني في شرحه عليه إلى أنه من تأليف الشريف .

وإذن فالكتاب من عمل الشريف الرضى وصنعه ، ويظهر أنه لم يؤلفه جميعاً ، فقد أضاف قبله كثير من أرباب الهوى وفصحاء الشيعة خطباً وأقوالاً إلى علي بن أبي طالب ، يدل على ذلك ما جاء في مروج الذهب للمسعودي إذ يقول : « الذي حفظ الناس عن علي من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة خطبة ونيّف وثمانون خطبة يوردها على البديهة ، تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً »^(٥) . وكان الشريف الرضى وجد مادة صاغ منها كتابه ، وهي مادة بُنيت على السجع ، وفي ذلك نفسه ما يدل على كذب نسبتها إلى علي ، إذ ليس من الطبيعي أن يسجع علي في خطابته ، بينما ينهى الرسول الكريم عن السجع ، ويتحاماها أبو بكر وعمر وعثمان في خطاباتهم .

ومعنى هذا كله أنه لا يصح الاعتماد على هذا الكتاب في تصور خطابة علي وأنه ينبغي الرجوع إلى المصادر الأولى ، مثل البيان والتبيين للجاحظ ، وقد روى

(١) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ .
 (٢) ٢٢٣/٤ .
 (٣) كتاب الرجال (طبعة يومبای) ص ٢٢ ، ٤١ .
 (٤) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤٤١/٤ .
 (٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف

طرفاً من خطبه وكلامه ومواعظه ، وقد دفعته حروبه مع طلحة والزبير وعائشة ثم مع معاوية إلى أن يكثُر من دعوة جنوده إلى جهاد أعدائه وتحميسهم للكفاح والنضال في سبيل مبدئهم وفكرتهم^(١) .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على نهضة الخطابة في هذا العصر الأول من عصور الإسلام، إذ أتيج لها من نبوة الرسول ورسالته وبيانه وبلاغته ما اتخذته خلفائه الراشدون لهم إماماً . وفرق بعيد بين خطب هذا العصر وخطب الجاهلية ، فالأخيرة جمل وصيغ لا رابط بينها تأخذ في الأكثر شكل حكم متناثرة ، يسردها الخطيب سرداً ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطبة غاية دينية واضحة تسمو بالعربي في مراقي الفلاح الروحي ، وقد تخوض في تنظيمات حربية أو اجتماعية . وكل ذلك معناه أنها أصبحت ذات موضوع تدور عليه وأنها رقيت رقياً بعيداً .

الخطابة في العصر الأموي

ازدهرت الخطابة في هذا العصر ، وقد عملت في هذا الازدهار وهيات له أسباب مختلفة ، منها السياسي ، ومنها الديني ، ومنها العقلي ، أما من حيث السياسة فقد كثرت الأحزاب السياسية المعارضة لبني أمية وكثُر مشعلو الفتن والحروب الداخلية . ومعروف أن الدولة الأموية قامت على أنقاض فتنة عثمان وما انتهت إليه من حروب صفيين بين علي ومعاوية . وبمجرد أن قبل على التحكيم خرج عليه فريق من جيشه سُمي الخوارج ، وشهروا سيوفهم في وجهه ، وعبثاً حاول العودة بهم إلى صفوفه ، فحاربهم وتصدى له أحدهم فقتله . وخلص

(١) انظر البيان والتبيين ٥٣/٢ وما بعدها للمبرد وعيون الأخبار والطبري في مواضع متفرقة .
وراجع العقد الفريد ٦٦/٤ وما بعدها والكامل

الأمر لمعاوية وخلفائه من بنى أمية فظل هؤلاء الخوارج ينازلونهم ، ويعدون دار المسلمين دار حرب ، فيجب أن يجاهدوهم ، إذ جعلوا الخلافة في قریش وهى ليست حقاً من حقوقها وإنما هى حق لله ، وينبغى أن يليها من يستحقها بمشورة المسلمين ، وأن يكون خيرهم تقوى وزهداً وورعاً ، ولو لم يكن قرشياً ، بل لو كان عبداً حبشياً . وقد تعددت فرقهم ، وأهمها الأزارقة في فارس ، والنجدات في الإمامة وحضرموت والبحرين ، والصفارية في الموصل وشمالي العراق ، والإباضية في اليمن وحضرموت .

ولا نتقدم إلى عصر يزيد بن معاوية حتى يرسل شيعة على ابنه الحسين أن يفد عليهم في الكوفة لمبايعته وإعلان الثورة على بنى أمية وصاحبهم يزيد ، وما يكاد يلم بالعراق حتى يتعدوا عن نصرته ، فيُسْفَكُ دمه . ويندمون على ما كان من تضييعه ، ويتجهون إلى الدعوة السرية لأبناء على ، ومن حين إلى حين تنشب ثوراتهم ، ولعل أهمها ثورة المختار الثقفي لعهد مصعب بن الزبير ، ثم ثورة زيد بن على بن الحسين لعهد هشام بن عبد الملك ، وقضى الأمويون على الثورة الأخيرة بينما قضى مصعب على ثورة المختار . وكان هذا الحزب الشيعي يؤمن بأن الخلافة من حق أبناء على فهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم لذلك ورثها الشرعيون . وقد ذهبوا إلى أن إمامة على نص عليها الرسول ، ومن هنا تأتى عقيدة الوصية التي يدين بها الشيعة جميعاً ، كما يدينون بعقيدة المهدي ، وهو الإمام المنتظر الذي يخلف العالم مما فيه من شرور . وأسباب مختلفة جعلت الفرس يدخلون في هذه العقيدة ، إذ كانوا قبل الإسلام يؤمنون بتوارث الملك في أسرة بعينها ، على هذا القياس يصبح أحق الأسر القرشية بالملك العربي بنى هاشم وأبناء على خاصة ، فهم أقرب الناس إلى الرسول ، وأيضاً فإن علياً كان يسوى بينهم وبين العرب في الحقوق بينما كان يضطهدهم الأمويون وولاتهم ، ولعل شيئاً من تشيعهم يرجع إلى كرههم لمن غلبوهم على بلادهم ، وكأنا رأوا فيه ضرباً من المقاومة لهؤلاء الغالبين .

وبجانب الحزبين السابقين ، حزبي الشيعة والخوارج ، توالى الثورات على

بنى أمية ، فثار عبد الله بن الزبير في الحجاز أثناء خلافة يزيد ، واستقل بها نحو عشر سنوات ، وتبعته العراق ومصر ، إلا أن عبد الملك بن مروان استطاع القضاء عليه . وثار في العراق وإيران عبد الرحمن بن الأشعث ، ودوَّخ الحجاج طويلاً قبل أن يقضى على ثورته . وفي أوائل القرن الثاني للهجرة ثار بالعراق أيضاً يزيد بن المهلب ، وكان مصيره مصير ابن الأشعث . ولا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى يُجمع الشيعة أمرهم في خراسان ويؤلفوا جيشاً يقضون به على الدولة الأموية قضاء مبرماً .

وهذه الأحزاب والثورات لم تكن تستعين في انتفاضها على الأمويين بالسيوف فحسب ، بل كانت تستعين بالخطب والخطباء بدعون لها ويحمسون الناس على الانفضاض عن بنى أمية . ومن المهم أن نعرف أن السياسة على السنة هؤلاء الخطباء كانت تقترن بالدين لسبب بسيط ، وهو أن الخليفة عند المسلمين يعد إمامهم الذي تنتظم به مصالحهم وقواعد ملتهم على مقتضى الشريعة الإسلامية .

وبجانب هذا السبب السياسي الذي دلغ الخطابة وسعَّر بها الفتن والثورات على الأمويين سبب ديني خالص ، إذ أسست في كل بلد إسلامي مدرسة دينية تعلم الناس أصول دينهم وفروعه ، وكان العلماء القائمون عليها كثيراً ما يختلفون فيتحاورون في وجهات نظرهم^(١) . ولم تلبث أن انبثقت أبحاث كثيرة ومناقشات طويلة في القدر وإرادة الإنسان ومدى حرته وفي الإيمان وهل من الضروري له أن يرافقه العمل ، وفي صفات الله وهل هي عين الذات الإلهية ، وسرعان ما ظهرت فرق الجبرية والقدرية والمرجئة . فكان ذلك باعثاً على ظهور المناظرات ، وهي فرع مهم من فروع الخطابة .

وليس هذا فحسب ما أنتجه الدين في خطابة القوم ، فقد بقي ركنان مهمان هما القصص والوعظ ، إذ كانت هناك طائفة تُعرَفُ بالقُصَّاص ، تفسر

(١) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ والبيان والتبيين ١/٢٤٣ .

القرآن الكريم ، وتمزج تفسيرها بقصص كثيرة تستمدّها من موروثات أهل الكتب السماوية ، وكانوا يستغلون ميل الناس إلى الأخبار العجيبة فيتريدون في قصصهم ، وكانت الأحزاب السياسية تتخذ نفراً منهم وسيلة للدعوة لها ولتحسيس جنودها حين ثور بالدولة^(١) ، وكان للأمويين في كل بلد قاصٌّ يقص على الناس في المسجد الجامع ويدعو إلى طاعتهم^(٢) . واتسعت بجانب ذلك موجة الزهد والعبادة والنسك ، وتبعها ظهور وعاظ كثيرين ، تموج كتب الأدب بمواعظهم وما كانوا يدعون إليه من الزهد في حطام الدنيا ، ومجاهدة النفس حتى ترفض عرض الحياة ومُتَعَمَّها الزائلة وتطلب ما عند الله من ثواب الآخرة .

ورافق هذا السبب الديني في ازدهار الخطابة سببٌ عقلي مرده إلى عناصر الثقافات الأجنبية التي أخذ يُدْعَمُ بها العقل العربي منذ هذا العصر الأموي ، مما فتق فيه قوة الجدل والحجاج . ومعروف أن الثقافة لهذا العصر لم يكن يضطلع بها العرب وحدهم ، بل كان يشركهم فيها الموالي الذين اتخذوا العربية لسانهم وقد أخذوا يزودونها بمعارفهم وثقافتهم القديمة . وقد تعود مؤرخو الأدب العربي أن يقنوا في هذا الجانب من التزاوج بين العرب والموالي في الفكر والثقافة عند العصر العباسي ، عصر الترجمة المنظمة لما كان عند اليونان والفرس والهند . وينبغي أن نلاحظ أن هذا العصر الذي نُظِّمَتْ فيه الترجمة سبقه عصر ، هو العصر الأموي ، لم تكن تعرب فيه الكتب إلا نادراً ، كما هو معروف عن خالد بن يزيد بن معاوية وطلبه لما عند الأجانب من معارف ، ولكن كان يعرَّب فيه لسان حملة هذه الكتب ، وكانوا سيولاً من شعوب الشرق الأوسط وأمه ، دخلوا في الإسلام ، ودخلت معهم ثقافتهم . وقد أقبلوا على الدراسات الدينية والعقلية يسهمون فيها بالحظ الأوفر ، فإذا قلنا إنهم ارتقوا بالعقل العربي

(١) الطبري ، القسم الثاني ص ٩٥٠ وابن الأثير (طبعة ليدن) ٣٤١/٤ .

للكندي (طبعة جيست) ص ٣١٤ ، وقارن بالهاش في ص ٣٠٤ .

(٢) خطط المقرئ ٢٥٣/٢ والولاء والقضاة

وكل ما أنتجه في ذلك العصر من خطابة وغير خطابة لم تكن مبالغين ، فقد كثرت المعرفة وتشعبت المعاني ودقت الفطن ، ولم يعد لها حدٌ تنهى إليه ، وانسابت من ذلك أسراب كثيرة في خطابهم ، فصاروا أقدر على البيان والتصرف في الألفاظ .

ويُنحَّل إلى من يقرأ في أخبار القوم أنهم أصبحوا جميعاً خطباء ، فهم يخطبون في نظرياتهم السياسية وفي معتقداتهم الدينية ويتناقشون فيها بكل مكان ، في المسجد الجامع وفي الطرقات والأسواق ، وفي السلم وحين يتحاربون ، ومن ورائهم القصاص والوعاظ ، وقد جعل ذلك الجاحظ ينهر انبهاراً شديداً ، فيخص العرب بالخطابة ويرفعهم درجات فوق الفرس واليونان^(١) ، وقد يكون مصيباً فيما يختص بالفرس ، أما اليونان فأكبر الظن أنه لم يقرأ شيئاً واضحاً عن خطابهم ، وإلا ما بالغ في رأيه وذهب هذا المذهب ، فإن من المعروف أن الخطابة نهضت عند اليونان نهضة واسعة ، إذ كانت لديهم مجالس شورية وقضائية أعدت لازدهار الخطابة عندهم ازدهاراً أتاح لأرسططاليس أن يكتب فيها وفي أنواعها وأغراضها وأساليبها كتاباً كبيراً ، وأكبر الظن أن الجاحظ لم يعرف شيئاً من ذلك كله ، وهو كذلك لم يعرف شيئاً عن خطباء اليونان المشهورين أمثال ديموستين وبركليس .

ومهما يكن فقد ارتقت الخطابة رقيّاً بعيداً في العصر الأموي ، ونشطت نشاطاً لعل العرب لم يعرفوه في عصر من عصورهم الوسيطة ، إذ اتخذوها أدواتهم للظفر في آرائهم السياسية والانتصار في مجادلاتهم المذهبية ، وعولوا عليها في قصصهم ومواعظهم ، وفي وفادتهم على الخلفاء والولاة ، ومن ثم أُنعت فيها فروع ثلاثة ، هي الخطابة السياسية وخطابة المحافل والخطابة الدينية ، ونلم بكل فرع من هذه الفروع إلمامة قصيرة .

(١) البيان والتبيين ٣/٢٧ وما بعدها .

الخطابة السياسية

كان كل حزب من الأحزاب السياسية يتخذ الخطابة وسيلة إلى نقد خصومه وبيان نظريته السياسية واستمالة الناس إليها وكذلك كان يصنع الثائرون على بنى أمية من أمثال يزيد بن المهلب في تحريك الناس إلى الثورة عليهم وكأنما قامت عندهم جميعاً بما تقوم به الصحافة في عصرنا من الدعاية للآراء السياسية ، فانبهرى خطباء كل حزب يدعون إلى نظرية حزبهم وبيان أنهم على الحق وخصومهم على الباطل ، فهم الجديرون بأن يعتنق الناس مبادئهم ويزودوا عنها زياداً .

وكان الخوارج يصفون بنى أمية بجورهم في الأحكام وتعطيلهم حدود الله ، ويتناولونهم باللسنة حداد وقد يضيفون إلى ذلك مواظ تصور عمق تدينهم وتمسكهم بالعروة الوثقى ، ومن أشهر خطبائهم قطري بن الفجاءة وتحفظ كتب الأدب له بموعظة رائعة^(١) ، ومن خطبائهم أبو حمزة الخارجي ، وقد روى الجاحظ خطبة طويلة ألقاها في أهل مكة^(٢) ، وهو يفتتحها بالحديث عن رسول الله وهديته واقتداء أبي بكر وعمر به ، أما عثمان فعنده أنه أتى بما أحبط به الأوائل ، وأما على فلم يبلغ - في رأيه - من الحق قصداً . ثم اقتصر خلفاء بنى أمية خليفة خليفة يثلبه ، إلا عمر بن عبد العزيز فإنه أعرض عنه . ونراه ينحى باللائمة على من يتشيعون لآل البيت ، ثم يصف أصحابه ونضالهم دون عقيدتهم وصفاً رائعاً . ومن خطباء الخوارج المشهورين زيد بن جندب خطيب الأزارقة^(٣) وابن صديقة وكان صُفرياً ناسكاً وشبَّيل بن عَزْرَةَ الصُّبَيْعِي وعمران ابن حطان وحبيب بن حُدْرَةَ الهَلَالِي والمُقْتَعِظَل وعبيدة بن هلال اليشكري^(٤) ومنهم الضحَّاك بن قيس ونصر بن ميلحان^(٥) وعبد الله بن يحيى طالب

(١) البيان والتبيين ١٢٦/٢ والمقد الفريد
 (٢) ١٤١/٤ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ .
 (٣) البيان والتبيين ١٢٢/٢ وانظر المقد
 الفريد ١٤٤/٤ والأغانى ٢٠/١٠٤
 (٤) نفس المصدر ١/٣٤٣ - ٣٤٧ .
 (٥) انظر في هؤلاء الخطباء نفس المصدر
 ٣٦٤/٢ وما بعدها .

الحق^(١) والطَّرْمَاح^(٢) وغيرهم كثير .

ولا يقل خطباء الشيعة كثرة عن خطباء الخوارج ، ومن أشهرهم الحسين ابن علي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وزيد بن علي والمختار الثقفي وسليمان بن صُرْد وعبدالله بن مطيع وعبيد الله المرّي ، ومنهم بنو صُوحان : صعصعة وزيد وسَيِّحان . وكانوا يكثرّون من القُدْح في بني أمية وأنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ورثة النبوة وحملة الرسالة القدسية الهاديين المهديين والأئمة المنتظرين^(٣) .

ولم تطل مدة عبد الله بن الزبير ومع ذلك فقد ملأ دفاتر العلماء كلاماً^(٤) ، وكان أخوه مصعب واليه على العراق خطيباً مفوهاً وله خطبة جعلها كلها آيات قرآنية^(٥) . وكان حول ابن الأشعث كثير من الخطباء^(٦) ، وكان يزيد بن المهلب خطيباً مفوهاً ، وقد روى الجاحظ بعض خطبه^(٧)

وكان يقف في الصف المقابل من خطباء الأحزاب والثورات خطباء بني أمية يدعون الناس إلى التمسك بجبل الجماعة وتأييد الأمويين في حقوقهم التي اكتسبوها عن آبائهم ، وتقديمتهم لهم فروض الطاعة والولاء ، وكثيراً ما يخلطون ذلك بالترهيب والترغيب ، وقد يشيرّون إلى مقتل عثمان وأن الأمويين أولياء دمه وورثة خلافته . ولم مواعظ لا نشك في أنهم قالوها في صلاة الجمعة والعيدين ككثير مما روى عن زياد والحجاج ، وعن بعض خلفائهم وخاصة عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد المشهور . وأكثر خلفائهم كان خطيباً ، ولم يخطب تدور في كتب الأدب والتاريخ . ومن خطبائهم بجانب من قدمنا عتبة بن أبي سفيان وإلى معاوية على مصر وعبيد الله بن زياد وخالد بن عبد الله القسّري ويوسف

-
- (١) الأغاني ٩٨/٢٠ .
 (٢) البيان والتبيين ٤٦/١ .
 (٣) الطبري ، القسم الثاني ص ١٩٦١ .
 (٤) البيان والتبيين ١/٣١٤ وانظر خطبه في العقد الفريد ١٠٧/٤ .
 (٥) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد ١٣٥/٤ .
 (٦) البيان والتبيين ١/٤٨ وانظر ١٥٥/٢ .
 (٧) البيان والتبيين ١/٢٩٢ وانظر العقد الفريد ١٢٧/٤ .

ابن عمر الثقفي وسعيد بن العاص وابنه عمرو الأشدق، ومن قوادهم الخطباء موسى ابن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الأندلس وقتيبة بن مسلم ونصر بن سيار فاتح التركستان .

وعلى هذا النحو كان لكل حزب خطباؤه الذين يذودون عنه وينافحون عن مبادئه ، ولم يكن هناك داع لفكرة أو لنضال في حرب لا يقف في الناس خطيباً ، وقد بعث ذلك على نهضة الخطابة السياسية في هذا العصر نهضة واسعة . ولعل هذه النهضة هي التي جعلت المؤرخين حين يعرضون علينا الآراء السياسية أو المذهبية لزعماء هذا العصر يعرضونها علينا في شكل خطب ، على نحو ما نجد في الطبري وابن الأثير ، فهم إذا أرادوا أن يعرضوا علينا رأياً للحسين ابن علي أو لحفيده زيد أو لأبي داع شيعي أو خارجي أو أي ناثر زبيرى وغير زبيرى أو لأبي وال أموى أو قائد يقود الجيوش عرضوه في صورة خطبة ، فهم لا يقولون إن فلاناً كان يرى كذا أو كذا ، وإنما يقولون خطب فلان فقال كذا وكذا . فهم لا يتصورون صاحب نحلة سياسية يعرض رأيه في شكل حديث بل لابد أن يعرضه في شكل خطبة يقرع بها الأسماع ويجذب القلوب .

خطابة المخالف

نمت الخطابة الحفلية في هذا العصر بحكم نمو السلطان العربي ، فكانت الرجال والوفود تتقدم على الخلفاء والولاة لأغراض مختلفة: للشكوى أو للاستمناع أو للتهنئة أو للتنزية أو للموعظة أو لغير ذلك من الأغراض . وقد روى في كتب الأدب كثير من أخبار هذه الوفادات . ومن وفد على معاوية النخار ابن أوس العُدزى^(١) وعمرو بن سعيد الأشدق^(٢) وزُرعة بن ضمرة ، وهو الذي كان يقال فيه « لولا غلو فيه ما كان كلامه إلا الذهب » وكان ابنه النعمان من أخطب الناس وقد وقع في يد الحجاج بعد قضائه على ثورة ابن الأشعث

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٧ ، ١/٢٣٣ . (٢) نفس المصدر ١/٣١٥ - ٣١٦ .

فتخلص منه بكلام لطيف^(١). ومن وفد على معاوية رَوْح^(٢) بن زنباع وصحار العبدى ، ويروى أن معاوية قال له : ما هذا الكلام الذى يظهر منك ؟ قال : شىء تجيش به صدورنا فتقدفه على ألسنتنا^(٣) ومن الوافدين عليه سبحانه وائل ، وقد اشتهرت له خطبة خطب بها بين يديه ، وكانت العرب تسميها الشوهاة من حسنها^(٤) ، ومنهم الأحنف بن قيس سيد تميم ، ومما نطق به فى حضرته ، معبراً عن شكاة لقومه^(٥) :

« إن دافئة دفتت^(٦) ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ، ونابطة نبتت^(٧) ، كلهم به حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبره ، فقال معاوية : حسبك يا أبا بحر ، قد كفيت الشاهد والغائب » .

ولما فكر معاوية فى جعل ابنه يزيد ولياً لعهد استقدم وفود العرب من الأمصار والبادية ، فكانوا يخاطبون بين يديه منوهين بيزيد ، ومبايعين له ، سياسة حكيمة منه ، حتى يرم الأمر من بعده لابنه^(٨). ولما توفى وجلس ابنه يزيد مكانه دخل عليه عطاء بن أبى صيفى الثقفى ، فخطب بين يديه بقوله^(٩) :

« يا أمير المؤمنين أصبحت قد رُزمت خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، وقد قضى معاوية نَحْبَهُ ، فغفر الله ذنبه ، وقد أعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، واشكره على أفضل العطية » .

وكان عبد الملك يجلس للوفود وخطبائها ، ومن وفد عليه سعيد بن عمرو بن

-
- | | |
|--|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٥٤ - ٣٥٥ . | لفقراء البادية الذين أجذبوا ونزلوا بهم . |
| (٢) نفس المصدر ١/٣٥٨ . | (٧) النابطة هنا : الصغار الناشئون ، أما |
| (٣) البيان والتبيين ١/٩٦ وقارن ٤/٤٦ | النابطة فيمكن أن يراد بهم الأضياف وينوبون |
| والعقد الفريد ٤/٣١ . | القوم وينزلون بهم . |
| (٤) نفس المصدر ١/٣٤٨ وانظر زهر | (٨) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وانظر العقد |
| الآداب ٤/٣٣ . | الفريد ٤/٣٦٩ حيث روى طرفاً من تلك |
| (٥) البيان والتبيين ٢/٨٨ . | الخطب . |
| (٦) دافئة دفتت : نازلة شديدة نزلت فاستأصلت | (٩) البيان والتبيين ٢/١٩١ وقارن يزهر |
| ما بأيديهم ، ويمكن أن يكون ذلك استعارة | الآداب ١/٤٩ . |

سعيد^(١) والهيثم بن الأسود بن العريان ، وقد سأله عبد الملك كيف تجللك ؟ قال : « أجدني قد ابيضت منى ما كنت أحب أن يسود ، واسودت منى ما كنت أحب أن يبيض ، واشتد منى ما كنت أحب أن يلين ، ولان منى ما كنت أحب أن يشتد »^(٢) . ولما توفى عبد الملك وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزونه ، فأقبل غيَّيلان بن سلمة الشَّقْفِي فسَلَّم عليه ، ثم قال^(٣) :

« يا أمير المؤمنين ! أصبحت قد رُزمت خير الآباء ، وُسِّميت خير الأسماء ، وأعطيت أفضل الأشياء ، فعظَّم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى لعبد الملك بخير القضية ، وأنزله بأفضل المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » .

ولم يكن يتولى الخلافة أموى إلا وتقدم الوفود عليه من الأمصار ، ويقوم خطبائها بين يديه مهثئين مبايعين ذاهبين في خطبهم كل مذهب . ومن حين إلى حين كانت تقدم هذه الوفود على الخليفة لترفع مظلمة لها ، أو لتتال بعض الرِّفْد والعتاء ونجد الوعاظ كثيراً ما يلُمون بمجالس الخلفاء ويعظونهم ، على نحو ما كان يعظ أبو حازم الأعرج سليمان بن عبد الملك^(٤) ، ولما تولى عمر بن عبد العزيز كان يقدم عليه النساء والزهاد لوعظه ، لما اشتهر عنه من نسكه وعبادته ، من مثل زياد بن أبي زياد ، وكان يلزمه محمد بن كعب القرظي ، وله أخبار معه ومواظ^(٥) ، وكان خالد بن صفوان يلزم هشام بن عبد الملك ويعظه^(٦) .

وعلى نحو ما كانت تفد الوفود والوعاظ على الخلفاء كانت تفد على الولاة ، ومن وفد على زياد وخطب بين يديه في وفد من قومه عمران بن حطَّان^(٧) ،

- (١) البيان والتبيين ١/٣١٦ .
 (٢) نفس المصدر ١/٣٩٩ ، ٢/٦٩ .
 (٣) البيان والتبيين ٢/١٩١ - ١٩٢ .
 (٤) عيون الأخبار ١/٣٤١ .
 (٥) نفس المصدر ٢/٣٤٤ ، ٣/١٤٣ .
 (٦) البيان والتبيين ١/١١٨ .
 (٧) عيون الأخبار لابن قتيبة ١٧٠/٣ .

وكان الأحنف يفد على ابن الزبير كما كان يفد على معاوية ، ويفد معه خطباء من قومه ^(١) ، وكم من خطيب تخلص من عقاب الحجاج بحسن منطقه ^(٢) ، ولما دخل أيوب بن القريّة عليه قال له : « ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف ، كأنهن ركّب وقوف : دنيا وآخرة ومعروف » وقال له في بعض القول : « أقلّني عترتي وأسغني ربي ، فإنه لا بد للجواد من كبوة ، ولل سيف من نبوة ، وللحليم من هفوة » ^(٣) . وكان كثيراً ما يستنطق الوافدين عليه ^(٤) . ولما ولي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على العراق كان يحضر مجلسه الوعاظ ، ويعظونه ^(٥) كما كانوا يعظون أباه .

ومما يدخل في هذا الضرب من خطابة المحافل خطابة الإملاك والترويج ^(٦) وخطابة الصلح بين العشائر ^(٧) ، وما كان من منازعات ومفاخرات في مجالس الخلفاء ^(٨) ، ويسوق الجاحظ في بيانه أخباراً كثيرة عن هذه الصور من الخطابة وما كان يفترق به بعضها عن بعض ^(٩) .

الخطابة الدينية والوعظ والمناظرات

نمت هذه الخطابة في عصر بني أمية نمواً واسعاً ، فقد كانت فريضة مكتوبة على المسلمين في صلاة الجماعة والعيدين وكان الخلفاء والولاة يؤمّون الناس في تلك الصلاة ، ولذلك نقرأ لكثير منهم خطابات زاهدة ، يحضّون الناس فيها على الانصراف عن الدنيا والتعلق بالآخرة ويحثّونهم على الخير والفضيلة

- | | |
|---------------------------------------|---|
| (١) البيان والتبيين ٣٠٠/١ . | ٧٣/٤ العقد الفريد ١٤٩/٤ وعيون الأخبار |
| (٢) نفس المصدر ٢٥٩/١ - ٢٦٠ والعقد | ٧٢/٤ . |
| (٣) البيان والتبيين ٣٥٠/١ وزهر الآداب | (٧) البيان والتبيين ١٣٥/٢ وانظر |
| (٤) البيان والتبيين ١٦٤/٢ . | ١٠٥/١ ، ١٧٣/١ . |
| (٥) البيان والتبيين ٢٤/١ . | (٨) انظر البيان والتبيين ٩٠/٢ - ٩٢ وانظر |
| (٦) انظر البيان والتبيين ٤٠٤/١ ، | العقد الفريد ٤/٤ وما بعدها والنزاع والتخاسم |
| | بين بني أمية وبني هاشم للمقرئ . |
| | (٩) البيان والتبيين ١١٦/١ ، ٦/٣ . |

والأعمال الصالحة . وأخطبُ الخلفاء في هذا الباب عمر بن عبد العزيز ، وله خطب كثيرة ، يدعو فيها الناس إلى طاعة الله والنفور من معصيته وأن يفكروا في الموت وما بعده من البعث والحساب والجنة والنار ، ولعل والياً لم يؤثر عنه من الخطب الدينية ما أثر عن الحجاج ، وكان دائماً يقول : «أيها الناس إن الكفَّ عن محارم الله أيسرُ من الصبر على عذاب الله»^(١) وللولاة من قبله وبعده مواعظ تروىها كتب الأدب والتاريخ^(٢) .

وإذا كان هذا اللون من الخطابة قد شاع على ألسنة الخلفاء الأمويين وولاتهم فإن خصومهم من الخوارج والشيعة كانوا لا يقلون عنهم دعوة إلى التقوى والورع ، بل لعلهم كانوا يتقدمونهم ، إذ لم يكن بأيديهم شيء من الدنيا ، وكانوا يمزجون خطابهم السياسية بالدين ، وقد يجعلونها دينية خالصة ، على نحو ما صنع قطري بن الفجاءة في موعظته المشهورة^(٣) ، وشداد بن أوس أحد شيعة عليّ في موعظته بين يدي معاوية ، وقد طلب إليه أن يتنقّص عليّاً^(٤) ، وتدور في كتب الأدب كلمات كثيرة لزيد بن علي بن الحسين ، هي من بقايا خطبه^(٥) ، وكان ينازعه جعفر بن حسن بن الحسن بن علي في الإمامة ، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما ومجادلاتهما في أيهما الأحق بها^(٦) .

غير أن هؤلاء جميعاً لم يتخصصوا بالخطابة الدينية ، ولم يعيشوا لها ، وإنما الذي عاش لها هم القُصَّاصُ والوعاظ ، وقد نشأ القصص منذ عصر عمر ابن الخطاب ، فكان هناك قُصَّاص يقصون في المساجد^(٧) وآخرون يقصون في

-
- (١) البيان والتبيين ١/٣٨٧ .
 (٢) نفس المصدر ١/٣٨٧ و ٢/١٤٣ .
 (٣) العقد الفريد ٤/١٣٤ وما بعدها وعيون الأخبار ٢/٢٤٦ ، ١/٢٥١ .
 (٤) البيان والتبيين ٢/١٢٦ و عيون الأخبار ١/٧٣ .
 (٥) طبقات ابن سعد ٥/٣٤١ .
 (٦) البيان والتبيين ٤/٦٩ و عيون الأخبار ٤/٢٥٠ .

مقدمة الجيوش الفاتحة^(١). واتسعت هذه الموجة اتساعاً شديداً في عصر بني أمية ، إذ استخدمتها الدولة كما استخدمها خصومها في الدعوة السياسية ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين في اليوم ، مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب^(٢) ، وعيّن للقصاص مرتبات خاصة^(٣). وكان للخوارج قصاص كثيرون ، أشهرهم صالح بن مسرح ، وكان يخلط مواعظه وقصصه بالدعوة إلى الجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يزال يذم الدنيا والتعلق بها .

وهؤلاء القصاص الرسميون كان يقابلهم قصاص من الناسكين العابدين من مثل الأسود بن سريع ، وهو أول من قصّ بالبصرة^(٤) ومثل زيد بن صوحان في الكوفة^(٥) وعبيد بن عمير في المدينة^(٦) ، وكان عبد الله بن عمر يحضر قصصه ووعظه ، ومنهم إبراهيم التيمي وكان الناس ينتفضون أمامه انتفاض الطير^(٧) ، وسعيد بن جبير ، وكان يقص كل يوم مرتين بعد الفجر وبعد العصر^(٨) ، وذوّب بن عبد الله وكان من أبلغ الناس في القصص^(٩) ، ومسلم ابن جندب قاصّ مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم^(١٠) ، ومطرف بن عبد الله الشخّير^(١١) ، ويزيد بن أبان الرقاشي ، وكان قاصّاً مجيداً ، ومن قوله^(١٢) :

« ليتنا لم نُخلّق ، وليتنا إذ خُلّقنا لم نَعص ، وليتنا إذ عصينا لم نمت ، وليتنا إذ متنا لم نُبعث ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسب ، وليتنا إذ حُوسبنا لم نعدّب ، وليتنا إذ عُدّبنا لم نخلّد » .

- | | |
|---------------------------------------|-----------------------------------|
| (١) أسد الغابة ٢١٦/٥ . | (٧) طبقات ابن سعد ١٩٩/٦ . |
| (٢) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ في | (٨) ابن سعد ١٨٠/٦ . |
| الهامش وخطط المقرئ (طبعة بولاق) ٢٥٣/٢ | (٩) أنظر العقد الفريد ١٩٨/٣ وعيون |
| (٣) الولاة والقضاة ص ٣١٧ . | الأخبار ٢٩٨/٢ . |
| (٤) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ . | (١٠) البيان والتبيين ١/٣٦٧ . |
| (٥) ابن سعد ٨٤/٦ . | (١١) نفس المصدر ١/٣٦٧ وصفة الصفوة |
| (٦) ابن سعد ٣٤١/٥ والبيان والتبيين | (١٢) البيان والتبيين ١/٢٨٩ . |
| (٧) ٣٦٧/١ . | (١٢) البيان والتبيين ١/٢٦٢ . |

وهو عم الفضل بن عيسى القصاص المشهور^(١) ، ومن كبار القصاص مالك بن دينار ، وكان يقول في قصصه : « ما أشد فظامَ الكبير »^(٢) . ومن القصاص أيضاً وهب^(٣) بن منبه .

وكان هؤلاء القصاص يمزجون قصصهم بالحديث عن الرسل والأنبياء والأمم الدائرة ، كما كانوا يمزجونهم بآي الذكر الحكيم وأحاديث الرسول عليه السلام . وكان يجانبهم كثير من الزهاد الوعاظ مثل رجاء^(٤) بن حيوة والأوزاعي^(٥) في الشام وسعيد^(٦) بن المسيب وأبي حازم^(٧) الأعرج سلمة بن دينار في المدينة . وعبد الله بن عمرو بن العاص في مصر^(٨) وكان العراق يحتفظ بهم ، ومنهم ابن شيرمة^(٩) وأيوب السخيتاني^(١٠) ومؤرق العجلي ، وكان يقول : « ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلل على ربه »^(١١) . ومنهم بكر بن عبد الله المزني القائل : « أطفئوا نار الغضب بذكر جهنم »^(١٢) والشعبي^(١٣) ومحمد بن واسع الأزدي ، وكان يقول : « يعجبني أن يصبح الرجل وليس له عنداء ، ويمسى وليس له عشاء ، وهو مع ذلك راضٍ عن الله »^(١٤) . ومن الوعاظ المشهورين محمد بن كعب القرظي واعظ عمر بن عبد العزيز^(١٥) ومالك بن دينار^(١٦) والحسن البصري هو أكبر وعاظ العصر وقصاصيه ، وكان الوعظ عليه أغلب ، وله مواظ كثيرة تدور في البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد ، وقد أفرد له ابن الجوزي

-
- (١) البيان والتبيين ١/٢٩٠ ، ٣٠٦-٣٠٨ (٨) عيون الأخبار ٢/٢٩٤ .
 وانظر الحيوان ٧/٢٠٤ .
 (٢) البيان والتبيين ١/١٢٠ وصفة الصفوة
 ٣/١٥٠ ، ٣/١٨٣ .
 (٣) انظر صفة الصفوة ٣/٢١٢ .
 (٤) البيان والتبيين ٢/١٩٨ .
 (٥) نفس المصدر ٣/١٤١ .
 (٦) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة
 ٣/٤٠ .
 (٧) انظر صفة الصفوة ٤/١٨٦ .
 (٨) صفة الصفوة ٤/٢٢٨ .
 (٩) صفة الصفوة ٢/٤٤ .
 (١٠) عيون الأخبار ٢/٢٧٢-٢٧٦ ، ٢/٢٨٣-٢٨٣ ،
 ٢/٣٢٨ .
 (١١) انظر صفة الصفوة ٤/١٨٦ .
 (١٢) صفة الصفوة ٤/٢٢٨ .
 (١٣) صفة الصفوة ٢/٤٤ .
 (١٤) عيون الأخبار ٢/٢٨٦ ، ٢/٣٣٠ .
 (١٥) البيان والتبيين ٣/١٤٢ والعقد الفريد ٣/١٦٣ .
 (١٦) عيون الأخبار ١/٥٤ .

كتاباً ساق فيه وعظاً كثيراً ، وهو لا يبلغ من الثقة به مبلغ المصادر السابقة . ونراه في وعظه دائم التذكير بالبعث ويوم الحساب مكثرأ من الخوض على التقوى والعمل الصالح الذى يبقى . وهو يعرض ذلك في صورة من الخوف الشديد ، الخوف من الجحيم ، حتى لكأنه يراها بين عينيه ، وكأن الناس واقفون على شفيرها ، وهو يدعوهم أن يتعدوا عنها مخافة أن يهوا فيها وهم لا يشعرون . وفي أثناء ذلك يحثهم على التحلى بالفضائل فاتحاً عليهم من جهة أبواب النار ومن جهة ثانية أبواب الرجاء بل أبواب المحبة الإلهية . ونراه يغترف في مواعظه اغترافاً من القرآن الكريم وآيه ، فهو المنبع الذى يستمد منه وعظه وخوفه ورجاءه وحزنه العميق ، ولعله من أجل ذلك كان يقول : « والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولنَّ في الدنيا حزنك وليشتدن في الدنيا خوفك وليكثرن في الدنيا بكاءؤك » (١) .

وعلى هذا النهج نفسه نقرأ مواعظ الوعاظ من حوله التى تنتثر في الكتب الأدبية الآتفة الذكر ، وكانوا كثيراً ما يلмон بمجالس الخلفاء والولاة فيعظونهم ويكونهم ، ويُحدثنا الرواة أن خالد بن صفوان وشيب بن شيبه والفضل بن عيسى الرقاشى وواصل بن عطاء تباروا في الوعظ بمجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حين ولى العراق ، وكان ذلك في سنة ١٢٨ للهجرة ، فبزمهم واصل لطول خطبته ولأنه جانب فيها الكلمات ذات الراء ، للثقة كانت له فيها ، فكان يتحاشاها في منطقته (٢) .

وخالد بن صفوان وشيب بن شيبه هما اللذان يقول فيهما الجاحظ : « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشيب بن شيبه ، للذى يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهم » (٣) ويقول في خالد : « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدمين في الخواص خالد بن صفوان . . . ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين » (٤) وكان الفضل بن عيسى

(١) حلية الأولياء لأبن نعم (طبعة الخانجي) (٣) نفس المصدر ١/٣١٧ .

(٢) ١٣٣/٢ . (٤) نفس المصدر ١/٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٤ .

الرقاشي من أخطب الناس وكان متكلماً ، وكان قاصاً مجيداً ، وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد وكثير من الفقهاء ^(١) ولم يكن عمرو بن عبيد يقل عنه بلاغة وبيانا ، أما واصل فلم يكن أبين ولا أجود لساناً منه ، وكان يلثغ في الرأ ، فرام إسقاطها من كلامه ، فلم يزل يكابد ذلك ويتناضله ويساجله ، حتى تخلص من تلك المهجنة ، وانتظم له ما حاول ، حتى في محاجة الخصوم وفي الكلام البديه المرتجل . ويعلل الجاحظ لذلك بأنه « كان داعية مقالة ورئيس نحلة وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال . ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتُسنى به الأعناق وتزَيَّن به المعاني » ^(٢) فما زال يمرن نفسه على تفادي الكلمات ذات الرأ ، حتى تأتي له ذلك واتسق له ما أراد .

ويقول الجاحظ إن واصلًا كان داعية مقالة ورئيس نحلة ، والمقالة التي يريدتها هي مقالة الاعتزال وهي نفسها النحلة ، ويحدثنا صفوان الأنصاري في قصيدة مدحه بها وأنشدها الجاحظ ^(٣) أنه كان له دعاة خطباء يطوفون بأركان الأرض حتى يبلغوا الصين شرقاً وبلاد البربر غرباً ، ويشيد ببيانهم وفصاحتهم وما أوتوا من اللسن وبراعة القول وقوة الحججة .

ويلفتنا الجاحظ إلى ما كان ينهض به واصل من الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، فقد كان يناظر أصحاب الديانات ، وكان يناظر أصحاب النحل من جماعة المسلمين ، ومن يقرأ في أخبار هذا العصر يعرف أن المناظرات كانت مشتعلة بين الفرق ، اشتعلت أولاً بين الفرق السياسية ، بين فرق الخوارج نفسها ثم بينهم وبين الشيعة ومن يميلون إلى طاعة أولى الأمر من الأمويين ، ثم اشتعلت بين أرباب الفرق الدينية التي كانت تبحث في العقيدة والإيمان

(٣) نفس المصدر ٢٥/١ .

(١) البيان والتبيين ٣٠٦/١ .

(٢) نفس المصدر ١٤/١ .

وصفات الله ، فكان هناك القدرية الذين قالوا بحرية الإرادة وعلى رأسهم الحسن البصرى ، وكان هناك الجبرية الذين يقولون بتعطيل إرادة الإنسان وأنه مجبر لا حول له على ما يأتي من الأمر ولا قوة ، وكان هناك المرجئة الذين يفصلون بين الإيمان والعمل ولا يحكمون على مسلم في أعماله ، بل يفوضون الحكم إلى ربهم . واحتدم الجدل بين هذه الفرق ، كما احتدم بين الفقهاء في اجتهادهم ومدى أخذهم بالقياس ، فكان الفقهاء يتناقشون ، وكان المتكلمون من أصحاب الفرق الدينية يتجادلون كما كان الخوارج والشيعة والأمويون يتحاورون ، كل يدافع عن رأيه ، ويحاول أن يقنع به خصمه أو خصومه ، وقد وصلتنا أخبار كثيرة عن تلك المحاورات والمجادلات والمناقشات ، فهم يروون أن الفقهاء كانوا يتناقشون في مجلس الشعبي^(١) ، وأن سليمان بن عبد الملك عقد مناظرة بين قتادة والزهرى ، فغلب الأول^(٢) ، كما غلب إياس بن معاوية عبد الله بن شبرمة في مناظرة طويلة ، تناولت اثنين وسبعين سؤالاً^(٣) . وكثيراً ما كان الخوارج يتناظرون مع خصومهم في نظريتهم السياسية وأمور الدين^(٤) ، وكذلك كان يصنع صنيعهم الشيعة ، وخاصة مع المرجئة^(٥) ، وكانت المناظرات بين المرجئة والجبرية والقدرية مشتتة في مجالس الوعاظ ، بل لقد وصل شررها إلى مجالس الخلفاء ، إذ يرَوَى أن عون بن عبد الله وموسى بن كثير وعمر بن حمزة وفدوا على عمر بن عبد العزيز وناظروه في الإرجاء^(٦) ، كما يروى أنه ناظر غيلان وصالح بن سويد في القدر^(٧) وكذلك يروى أن الأوزاعي وغيلان تناقشا فيه أيضاً أمام هشام بن عبد الملك^(٨) وقد احتفظ المرتضى في أماليه بمناظرة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد في مرتكب الكبيرة أمام الحسن البصرى^(٩) ، وكان

- (١) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ .
 (٢) البيان والتبيين ١/٢٤٣ .
 (٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .
 (٤) انظر مناظرتهم مع ابن عباس أول خروجهم ومع ابن الزبير ومع عمر بن عبد العزيز في العقد الفريد ٢/٣٨٨ - ٤٠٣ .
 (٥) ابن سعد ٦/١٩٢ والبيان والتبيين ٣/٣٥٠ .
 (٦) ابن سعد ٦/٢١٨ .
 (٧) شرح العيون لابن نباتة ص ١٨٤ .
 (٨) العقد الفريد ٢/٣٧٩ .
 (٩) أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١/١٦٥ .

الخوارج يكفرونه ، بينما كان الحسن يدعوه مؤمناً فاسقاً ، وكان واصل يرى أنه في منزلة بين المتزلتين ، وتناظر هو وعمرو بن عبيد في تلك المشكلة واستطاع أن يقنعه بوجهة نظره .

ومن يرجع إلى تلك المناظرة يلاحظ أنها تبدو في أولها تطبيقاً لأشكال القياس المنطقي ، وهي كذلك في أثنائها وفي خاتمها تستعين بالمنطق . وبما لا ريب فيه أن نفس الفكرة التي انتهى إليها واصل ، وهي أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين مرتلي المؤمن والكافر فكرة دقيقة ، لا يصل إليها إلا عقل دُعم بالثقافة ، وتعود النظر العميق والنقوذ إلى دقائق الأفكار والمعاني .

وطبيعي أن نجد الجاحظ مفتوناً أمام قدرة هؤلاء الخطباء الدينين ، فقد أشاد بهم في كل موضع من كتابه البيان والتبيين ، وتحدث عن تصرفهم في الألفاظ والأماليب وكيف صفّوها وروّقوها ونخلوها نخلا ، حتى لا ينطقوا إلا بلُبُّ اللُّبِّ ، وإلا بما عليه حلاوة ورشاقة وسهولة وعدوبة .

الصنعة في الخطابة الأموية

رأينا الخطابة تزدهر ازدهاراً رائعاً في العصر الأموي ، وقد صاحب هذا الازدهار عناية واسعة من الخطباء على اختلاف أغراضهم بإحكام خطابتهم عن طريق البيان التام والحجة البالغة والألفاظ المونقة ، ولا غرابة في ذلك فإنهم إنما كانوا يريدون بخطبهم في أكثر أحوالها إقناع الناس وإسكات الخصوم واستمالة القلوب ، حتى يصنع فيها صنيع الغيث في التربة الكريمة .

وإذا رجعنا نتصفح آثار الخطباء السياسيين وجدنا خطباء كل حزب يحاولون أن يحققوا لخطبهم كل ما يمكن من آلات البيان والبلاغة ، كل بحسب

طاقته ومواهبه . ونعرض في إجمال لطائفة من هؤلاء الخطباء ، هم زياد والحجاج من خطباء الحزب الأموي وقطري بن الفُجاءة من حزب الخوارج والمختار الثقفي من حزب الشيعة ، أما زياد فكان حسن الألفاظ جيد المعاني ، كأنما أوتي فصل الخطاب ، وفيه يقول الشعبي : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسىء إلا زياداً ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً »^(١) ولعل أشهر خطبة أثرت عنه هي خطبته الملقبة بالبترء ، وإنما سميت بذلك « لأن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد : البترء ، ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : الشوهاء »^(٢) .

ومن يرجع إلى هذه الخطبة^(٣) يلاحظ أن زياداً عني بتأليفها عناية شديدة ، فهي مقسمة إلى فقر ، إذ يستهلها ببيان ما انغمس فيه أهل البصرة من الغي والضلال والفسق والفساد منحرفين عن هدى الإسلام والقرآن الكريم . ثم يبين لهم سياسته التي سيأخذهم بها وأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، ثم يأخذ في إنذارهم وبيان العقوبات التي سينزلها على الجائنين منهم ومن يعيثن فساداً في الأرض ، ويخرج من ذلك إلى بيان حق أئمتهم عليهم من الطاعة ولزوم الجماعة ويقول إنهم يسوسونهم بسطان يستمدونه من الله ، فهم ساستهم المؤدبون وكهفهم الذي إليه يأوون ، ويختتمها بالوعيد الشديد يشوبه بالترغيب .

وبون بعيد بين هذه الخطبة وخطب الجاهليين ، فقد كانت الأخيرة أمثالا وحكماً ، ولما جاء الإسلام أصبح للخطابة موضوع ديني واضح ، ثم أخذت تنسج منذ الرسول عليه السلام للأحداث ، ولكنها لم تصبح خطابة زمنية على هذا النحو الذي نجده في «البترء» ، والذي أصبحت فيه الخطبة تعرض لسياسة الحكم

(١) البيان والتبيين ٦٥/٢ . الأخبار ٢٤١/٢ ، ٢٤٣ حيث أوردها ابن

(٢) نفس المصدر ٦/٢ . قتيبة برواية أخرى والمعقد الفريد ١١٠/٤ .

(٣) البيان والتبيين ٦٢/٢ وانظر عيون

وتدعو لبني أمية وتؤكد حقهم في الخلافة بمثل قوله : « أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بنفسى الله الذي حوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا » وكأنه يقرر هنا نظرية التفويض الإلهي التي عرفها الفرس قبل الإسلام ، فبنو أمية وولائهم مثل زياد يسوسون الناس بتفويض من الله ، وليس لهم أن يعارضوا وأن ينقضوا هذا التفويض أو تلك السياسة .

والخطبة بدون شك صحيحة النسبة إلى زياد ، فهي تصور سياسته التي تحدثنا عنها كتب التاريخ والتي أجملها في قوله : « لين في غير ضعف وشدة في غير عنف » ثم هي تصور شدته على الجانين والبعاة ومن كانت تحلدتهم نفوسهم بالخروج على بني أمية . وقد بناها جميعها من ألفاظ جزلة مختارة ، ليس فيها غريب مستكره ولا ساقط رديء ، وإنما فيها القوة والمتانة ، وفيها ضروب من الصور البيانية ، وبعبارة أخرى من التشبيهات والاستعارات ، غير أنه لا يعتمد فيها إلى السجع ، آخذاً بسنة الخلفاء الراشدين في خطاباتهم . وهي محكمة التنسيق كل فقرة تسلم إلى أختها ، والأفكار تتسلسل في نظام ، مما يدل على أنه لم يكن ذا عقل فطري بسيط . فعقله مدعم بالفكر الجديده وهو الفكر الذي أخذ يستنسخ ما لدى الأجانب من نظرية التفويض الإلهي وغيرها ، ولكن دون أن يذوب فيهم ، ودون أن ينسى شخصيته العربية وأسابو قومه المحكم القائم على استخدام اللفظ المصقول الرصين ، الذي يروعنا برونقه وسلاسة نظمه ووضوح دلالاته .

ولم يكن الحجاج يقل عن زياد بياناً وإعراباً عما يمتلج في صدره ، ولعل أشهر خطبه تلك التي خطبها في الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك^(١) . حدثت معاصروه أنه دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ،

(١) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ وعيون الأخبار

٢٤٣/٢ والعقد الفريد ١١٩/٤ وما بعدها .

فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر وهو ملثم بعمامة خبز حمراء ، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه ، ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني^(١)

أما والله إنى لأحتمل الشرَّ بجمله .. وإنى لأرى رءوساً قد أينعتُ وحان قطفُها وإنى لصاحبها، وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمامم واللِّحَى ؛ ثم أخذ ينشد أبياتاً تنذر بما سيأخذهم به من عنف ، فهم كما يقول أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ، وقد نثر عبد الملك جعبة سهامه فوجده أمرها عوداً ، فرماهم به ، ويردد وعيده لهم وتهديده من مثل قوله : « أما والله لألحونكم لحو العصا^(٢) ، ولأعصبنكم عصب السلِّمة^(٣) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل^(٤) » وقوله : « أما والله لتستقيمنَّ على طريق الحق أولاد عن لكل رجل منكم شغلا في جسده » .

والخطبة سياسية خالصة ، فهي ذات موضوع زمني واضح ، وهي تصور سياسة الحجاج التي اشتهر بها في كتب التاريخ والتي كانت تقوم على العنف الشديد في غير لين ، ولعل ذلك ما أراده الحسن البصرى حين قال فيه وفي زياد : « تشبه زياد بعمر بن الخطاب فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس^(٥) » .

وعلى نحو ما تصور الخطبة سياسة الحجاج تصور فصاحتها وبلاغته وحفظه للشعر الغريب ، إذ اتخذها مقدمة لكلامه ، وكأنما يجعله فاتحة موسيقية له وهي فاتحة يتبدى فيها، ويطلب التشبه بالبدول في لغته فحسب ،

(١) ابن جلا : كناية عن أنه لا يخفى مكانه ، والثنايا : الثماب في الجبال .
 (٢) لحا العصا والشجرة لحوا قشرها .
 (٣) السلِّمة : واحدة السلم ، شجر ذو شوكة ، وكانوا يصبون أغصانه ويشدونها بعضها إلى بعض ، ثم يخطونها بالمص ، فيثناثر ورقها للماشية .
 (٤) كانت الإبل الغريبة إذا وردت الماء على إبل أخرى ضربت لتبتعد عنها ، حتى ترتوى .
 (٥) البيان والتبيين ٦٦/٢ .

بل أيضاً في ثيابه وملبسه^(١) ، حتى يغرب على السامعين ويروعهم . ولم يكتف بهذا الضرب من الإغراب ، فقد عمد إلى طائفة من الصور الغريبة ، وهي تراكم في الخطبة تراكماً شديداً ، كما تراكم في خطبه الأخرى^(٢) . ولعل مما يتصل بميله إلى الإغراب والتهويل في منطقه ما رواه المبرد من أنه « كان إذا صعد المنبر تكلم رويداً ، فلا يكاد يُسْمَع ، ثم يترى في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه^(٣) ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد^(٤) . ومعنى ذلك أنه كان في مظهره أثناء خطابته وفي صوته وفي لفظه وما يحوى من شعر وصور نادرة يريد التهويل على السامعين ويحاول أن يحكم صنعته في الخطابة من جميع أطرافها ، حتى في إشارة اليد وفي الهمس بصوته والجمهور به حتى يخلب القلوب . على أننا نلاحظ أنه كان يتحاشى السجع مثله مثل زياد ، لكنه بعد ذلك كان يعنى باختيار ألفاظه ، ملتصقاً منها ما ليس متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً . وهو حقا يعد في الذروة من البلاغة لعصره ، حتى ليقول عنه مالك بن دينار : « ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج^(٥) . وما لا شك فيه أنه يتفوق على زياد في ابتكار الصور والتشبيهات والاستعارات ، ولكن زياداً يتفوق عليه في بناء خطبه وإحكام تأليفها ، بحيث تتابع في فقر وأجزاء متسلسلة . وليس معنى ذلك أن الحجاج لم يكن يطيل خطبه ، فقد كان كثيراً ما يطب في خطابته ويسهب إسهاباً شديداً ، وخاصة في مواعظه الدينية^(٦) وقد بقي له منها قطع تدور في كتب الأدب من مثل : « اللهم أرني الهدى هُدًى فأتبعه ، وأرني الغى غياً فأجتنبه ، ولا تكلينى إلى نفسى فأضِلُّ ضلالاً بعيداً^(٧) » ومثل : « إنا والله ما خلقنا للفناء ، وإنما خلقنا للبقاء ،

(١) البيان والتبيين ٢/٣٠٨ وعيون الأخبار
 (٢) ٢/٢٤٣ وقارن ١/١٦٩ .
 (٣) أنظر البيان والتبيين ٢/١٣٨ والعقد
 الفريد ٤/١١٩ وما بعدها .
 (٤) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ١٧٣
 (٥) البيان والتبيين ١/٣٩٤ ، ٢/٢٦٨ .
 (٦) نفس المصدر ٢/٢٩٨ .
 (٧) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد
 (٣) المطرف : الثوب .
 . ١١٥/٤

ولمّا ننقل من دار إلى دار^(١) وكان الحسن البصرى يقول فيه « يعظ عظة الأرزاقه ويبطش بطش الجبارين^(٢) » ويروى أنه قال : « لقد وقّدتنى كلمة سمعتها من الحجاج ، سمعته يقول على هذه الأعواد : إن امرأ ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلّق له للخلق أن تطول عليها حسرته^(٣) .

وربّ بنا أنه كان للخوارج خطباء كثيرون مفوّهون ، وكانوا يعنون عناية شديدة بإعداد كلامهم ، حتى يجذبوا القلوب إليهم ، ولعل ذلك ما جعل عبيد الله بن زياد يقول فيهم : « إن كلامهم أسرع إلى القلوب من النار إلى المشيم » وروى المبرد أن عبد الملك بن مروان أتى برجل منهم ، فجعل يبسط له من قولهم ويزين له من مذهبهم بلسان طلق وألفاظ مبيّنة ومعان واضحة ، فقال عبد الملك : « لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت إلى ما ثبتت الله على من الحجّة وقرر في قلبي من الحق^(٤) » وفي إحسانهم لخطابهم يقول عبيدة بن هلال^(٥) :

أدباءُ إما جتتهم خطباءُ ضُمّنا كلّ كتيبةٍ جرّارِ^(٦)

وكانوا يمزجون خطابهم السياسية بالدعوة إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وما عند الله من الثواب ، وقد يشنون على أبي بكر وعمر ، ثم يقدهون في عثمان ومن جاءوا بعده ، ويحثون على الجهاد ، معلّنين أنهم على الحق ، أما جماعة المسلمين فاتبعوا أهواءها وجارت عن الطريق القاصد . ومن خير ما يصور ذلك خطبة أبي حمزة الخارجي في مكة^(٧) ، وفيها يصف شباب الخوارج هذا الوصف الرائع :

-
- (١) البيان والتبيين ١٦٧/٢ وعيون الأخبار (٥) نفس المصدر ص ٧٠١ وانظر البيان والتبيين ٢٥١/٢ .
 (٢) البيان والتبيين ١٦٤/٣ .
 (٣) البيان والتبيين ١٩٣/٢ وقذتني : (٧) البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون الأخبار أفزعتني .
 (٤) الكامل للمبرد ص ٥٧٣ .
 (٥) والمعقد الفريد ١٤٤/٤ والأغاني ١٠٤/٢٠ .

« شبابٌ والله مكشَّهون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقبلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر^(١) ، ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شفق شفقة كأن زفير جهنم في أذنيه ، موصولٌ كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار . . حتى إذ رأوا السهام قد فوّت^(٢) والرماح قد أشرعت والسيوف قد انفضّيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عتق فرسه ، وتخصّبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكم من عين في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفّ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله .

وواضح أن هذا الوصف يعتمد في جماله على صدق العاطفة وحرارتها ، وقوة العقيدة ومئاتها ، إذ يمثل صاحبه مدى إيمان الخوارج بمذهبهم وكيف باعوا الحياة الدنيا بالآخرة ، حتى أصبح الاستشهاد أمنيتهم والتهافت على نيران الموت طلبيتهم ، وهم لذلك يثورون ثورة جاعحة ، يقصدون فيها عقيدتهم ويتفانون في سبيلها صادقين في ذلك عن روح تقوى مفرطة . ولعل ذلك ما جعلهم يكثرّون من المواعظ الخالصة . وخير من يمثلهم في ذلك قَطْرِيٌّ بن الفُجاعة وله موعظة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ^(٣) ، ونسوق قطعة من موعظته ندل بها على مبلغ تجويده وتحبيره ، يقول^(٤) :

« أما بعد فإنني أحذركم الدنيا فإنها حلوة حَصْرَة ، حُفَّت بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحلّيت بالأمال وتزينت بالغرور . . مع أن امرأ لم يكن منها في حَبْرَة إلا أعقبته بعدها عِبْرَة ، ولم يلق من سرّائها بَطْنًا إلا منحتّه

(١) أنضاء : مهزولون ، أطلاق : مكثودون . (٢) البيان والتبيين ١/٣٤١ - ٣٤٢ .

(٣) فوّت : جعلت لها الأفواق ، وهي مواضع (٤) نفس المصدر ٢/١٢٦ ويعيون الأخبار

الأوتار في السهام . ٢٥٠/٢ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

من ضرأتها ظَهَرًا، ولم تَطْلُهُ^(١) غَيْبَةً رُخَاءً إلا هطلت عليه مُزْنَةٌ بلاء، وحرى إذا أصبحت له منتصرة ، أن تسمى له خاذلة متنكرة ، وإن جانبٌ منها اعنوذَبَ واحلَّوَلَى ، أمرٌ عليه منها جانبٌ وأوبى^(٢) ، وإن آتت امرأ من غضارتها ورفاهيتها نِعْمًا ، أرهقته من نوائبها نِقْمًا ، ولم يُبْسِ امرؤٌ منها في جَنَاحِ أَمْنٍ إلا أصبح منها على قوادم^(٣) خوف .. لا خير في شيء من زادها إلا التقوى .

والقطعة - مثلها مثل الموعظة جميعها - تمتاز بأنها تتصل بنفس صاحبها ، وكأنه سكب فيها روحه ، فهو يعبر عن تقوى صادقة تسيل من قلبه ونفسه ، وهو بعد ذلك دقيق في اختيار لفظه ، يعنى برصفه عناية أوسع من عناية أبي حمزة الشارى ، إذ تنقلب عنايته في أكثر الموعظة إلى ضرب من السجع الرشيق . وهذه العناية بالسجع إلى حد بعيد تضافت معها عناية بالطباق والمقابلة وعناية أخرى بالصور والرسوم المتحركة ، وهو يشبه الحجاج في الجانب الأخير ، غير أنه لا يكتفى به ، بل يضيف إليه فنوناً من المقابلات وضروباً من الإيقاعات الصوتية ، حتى يبلغ ما يريد من التأثير في نفوس سامعيه .

ولم يكن الشيعة أقل من الخوارج وولاية بنى أمية احتفالاً بخطابهم ، ويؤثر عن علي بن الحسين أنه قال : « لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة وجملة الحال في صواب التبيين لأعربوا عن كل ما تخلَّج في صدورهم ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم .. ولكنهم من بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالعجب ، ومعدول بالهوى عن باب الثبوت ، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلم^(٤) . وكان زيد ابنه جدلاً لساناً يجتذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعدوبته^(٥) ، مع قوة الحجج

(١) تطل : من الطل وهو المطر الخفيف . ٥٩/١ .
 (٢) أوبى : من الوباء . (٥) البيان والتبيين ٥٨/١ وانظر زهر الآداب .
 (٣) القوادم : الريش في مقدمة الجناح . ٧٢/١ .
 (٤) البيان والتبيين ٨٤/١ وزهر الآداب

وكثرتها ، ومع الجزالة والفضامة^(١) ، ومن خطباء الشيعة وكبار دعاةهم في هذا العصر المختار الثقفى ، وكان خارجياً ، ثم صار زبيرياً ، ثم صار رافضياً^(٢) ، وقد ثار في العراق ثورة عنيفة ، غير أن مصعب بن الزبير قضى عليه في سنة ٦٧ للهجرة . وكان يذهب في سيرته وخطابته مذهباً قريباً من مذهب الكهنة في الجاهلية ، فكان يزعم لأصحابه أنه يوحى إليه ، وكان يتخذ السجع دلالة على هذا الوحي ، وفي ذلك يقول ابن قيس الرقيات :

والذى نغص ابن دومة ما تو حى الشياطينُ والسيوفُ ظمَاءُ

وكان يتخذ لأنصاره كرسياً قديماً العهد غطاه بالديباج ، وكان يقول لهم : « إن محله فيكم محل السكينة في بني إسرائيل »^(٣) وروى المبرد كثيراً من شعودته وكيف كان يدعى أنه يُلهمُ ضرباً من السجع لأموه تكون ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل . ومن يرجع إلى سجعه يجده يعتمد فيه على الأقسام والإبهام والإغراب على نحو ما كان يعتمد على ذلك الكهنة قديماً من مثل قوله^(٤) :

« أما وربُّ البحار ، والتخيل والأشجار ، والمهامه^(٥) والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كلَّ جبَّار ، بكلِّ لَدْنٍ خَطَّار^(٦) ، أومهند بتَّار^(٧) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار^(٨) ، ولا بعزَّل^(٩) أشرار . حتى إذا أقيمت عمود الدين ، ورأيت شعب^(١٠) صدَّع المسلمين ،

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٩ - ٣١٠ ،
 (٢) ٣٢٥/١ والعقد الفريد ٤/٣٢ .
 (٣) الكامل للمبرد ص ٥٩٦ .
 (٤) نفس المصدر والصفحة وانظر الحيوان للجاحظ ٢/٢٧١ .
 (٥) الطبرى ، القسم الثانى ص ٥٣٦ .
 (٦) المهامه : القفاى والقفار .
 (٧) لَدْن : الرمح القاطع لئنه وحدته ،
 (٨) عزَّل : جمع أعزل : وهو من ليس معه سلاح .
 (٩) شعب : ثلثة . ورأب الصدع : أصلحه .
 (١٠) الحطار : الضارب .

وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى .

وكان المختار يكثر من هذه الأسجاع ويتشبه فيها بصنيع الكهان ، وهذا هو لآخسته الذي كان يردده في خطبه التي رواها له المؤرخون ، وكان يوقر من غير شك في أثناء ذلك لكلامه ضرباً مختلفاً من التكلف حتى يحقق ما يريد من الإيهام البعيد .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء المحافل وجدناهم يحاؤون جاهدين التأثق في خطاباتهم^(١) ، وهذا طبيعي لأن خطابهم معدودة ، إذ لا تتجاوز في كثير منها كلمات معدودة ، وكانوا يلقونها بين أيدي الخلفاء والولاة ، فكانوا يطلبون فيها أن تروعهم وتستميل إليهم قلوبهم ، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يلتزمون فيها السجع حتى يستموا لها كل حلية صوتية ممكنة . وأشهر خطباء المحافل في هذا العصر ، كما أسلفنا ، الأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة ، فقد كان يفد لقومه على معاوية ، فيلقى إليه بحاجاتهم في عبارات مسجعة منمقة على شاكلة قوله^(٢) :

« يا أمير المؤمنين ! أهل البصرة عدد يسير ، وعظم كسير ، مع تتابع من الحول ، واتصال من الذحول^(٣) ، فالكثر فيها قد أطرق^(٤) ، والمقل قد أملق^(٥) ، وبلغ منه الخسوق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعش الفقير ، ويَجبر الكسير ، ويسهل العسير ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء^(٦) ، وإن السيد من يعم ولا يخصّ ويدعو الجفلى^(٧) ، ولا يدعو النقرى^(٨) ، وإن أحسن إليه شكر ، وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء

(١) البيان والتبيين ٢٠٤/١ وما بعدها . (٥) أملق : افتقر .

(٢) زهر الآداب الحمصى (طبعة المطبعة . (٦) اللأواء : الشدة .

الرحمانية) ٤٦/١ . (٧) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .

(٣) الذحول : الثارات ، والحول : الجذب . (٨) النقرى : الدعوة الخاصة ، دعوة الأفراد .

(٤) أطرق : ضعف وهزل .

ذلك لرعيته عماداً يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المعضلات .
 وليس الأحنف وحده الذى كان يسجع بين خطباء المحافل ، فقد
 كانت عاتمهم تذهب هذا المذهب من التحير وتنميق الكلام . واستمر ذلك
 ستمهم طوال عصر بنى أمية كما كان سمة أعراب البادية غالباً حين ينزحون من
 باديتهم إلى المدن ، فيتحدثون بين أيدي الخلفاء والولاة ، وقد فتح الجاحظ
 لهم فصلاً فى بيانه استعرض فيه طائفة من أقوالهم^(١) ، وهى جميعها تدخل فى
 هذا الأسلوب المسجع وما يُطوَى فيه من جمال الصياغة ، ويعبر الجاحظ
 عن انهاره إزاء ما يروى من كلام هؤلاء الأعراب ، فيقول : « ليس فى
 الأرض كلام هو أمتع ولا أنقى ولا ألد فى الأسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول
 السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث
 الأعراب العقلاء الفصحاء »^(٢) . ويقال إن خالد بن صفوان تكلم فى صلح
 بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، فإذا أعرأى فى بست^(٣) ، ما فى رجليه حذاء ،
 فأجابه بكلام أروع من كلامه وأعجب^(٤) .

وقد خطا خطباء القصص والمواعظ بخطابتهم خطوات واسعة نحو الصقل
 والتجويد لأساليبهم وتلوين معانيهم وتنوعها وتفرعها فروعاً كثيرة . ولم يكن
 الوعاظ يخطبون وقوفاً إلا فى صلاة الجماعة والعيدى ، أما بعد ذلك فكان مثلهم
 مثل القصاص يخطبون غالباً وهم جالسون وحولم الناس يتحلقون ، وهم يسوقون
 إليهم مواعظهم . فخطابتهم كخطابة القصاص كانت فى الأغلب خطابة
 جالسة ، أو قل كانت أشبه بالمحاضرات والإملات . وليس هذا هو كل
 ما يفرق بين خطابتهم والخطابة السياسية ، فهناك فرق آخر مهم يتصل بجمهور
 المستمعين إلى الطرفين ، إذ كان خطباء السياسة يتجهون بخطابتهم إلى العرب
 وجيوشهم المقاتلة ، أما خطباء الوعظ والقصص فكانوا يخاطبون الهيئة الاجتماعية

(١) البيان والتبيين ١/٢٨٤ وما بعدها وانظر (٣) البت : كساء غليظ .

(٤) البيان والتبيين ١/١٧٣ . (٢) البيان والتبيين ١/٤٠٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

كلها على اختلاف طبقاتها من خاصة وعامة ومن عرب وموال . ولذلك هبطوا بأساليبهم قليلا عن مستوى أساليب الخطابة السياسية ، حتى تفهمهم جميع الطبقات ، وحتى لا يرتفعوا بكلامهم عن فئات العامة ، ومع هذا الهبوط لم يخرجوا إلى كلام السوق ، بل وازنوا موازنة دقيقة بين كلامهم ومستوى الفصاحة ، فأخلوه من الألفاظ الغريبة ، وفي الوقت نفسه لم يسقطوا به إلى ألفاظ مبتذلة . وألجأهم ضيق معانيهم إلى التنوع فيها والتفريع والتوليد ، كما ألجأهم إلى ضروب من الترداد والتكرار والترادف ، لم يلبثوا أن تحولوا بها إلى صورة من الأسلوب المزدوج ، الذي يقف في منزلة وسطى بين أساليب السجع والأسلوب المرسل . ولا نغلو إذا قلنا إنهم هم الذين هبتوا لبروز هذا الأسلوب الذي شاع فيما بعد بين الكتاب مثل عبد الحميد الكاتب والجاحظ ومن جرى مجراهما . ونراهم يستخدمون ضرورياً من التصوير أو من التشبيهات والاستعارات ، وهم يستلهمون في كثير من جوانبها آى الذكر الحكيم كما يستلهمونها في أكثر معانيهم ، وقد جعلهم حديثهم عن الثواب والعقاب والجنة والنار والطاعة والعصيان والحياة والموت والإيمان والكفر أن يقيموا كلامهم على الطباق والمقابلة ، مثل قول الحسن البصرى : « بع دنيك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنيك فتحسرهما جميعاً ، وإذا رأيت الناس في الخير فتافسهم فيه وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به ، الشؤاء هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، فخذوا صفاء الدنيا وذرروا كدرها» (١) وقوله : « إن خوفك حتى تلقى الأمن خير من أمنك حتى تلقى الخوف» (٢) .

والحسن البصرى خير من يصور أساليب الوعاظ المبني على الازدواج واستخدام بعض الصور وتلوين الكلام بألوان الطباق والمقابلة ، مما يمثل تلك الصناعة المحكمة ، ويغلب الحزن على مواعظه كما يغلب ترداد معنى الخوف والرجاء ، ووصفه بعض معاصريه ، فقال : « كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وكأنه إذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان إذا

(١) البيان والتبيين ١٣٢/٣ .

(٢) العقد الفريد ١٧٨/٣ وانظر ٢١٤/٣ .

ذُكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له ،^(١) . ويموج كتاب البيان والتبيين
وكتاب عيون^(٢) الأخبار والعقد^(٣) الفريد بمواعظه ومواعظ معاصريه .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن هؤلاء الوعاظ هم الذين ألانوا أساليب اللغة العربية
وحملوها من الطاقات ما تستطيع به التعبير عن المعاني الدقيقة ، وكانت
كثرتهم من الأجانب ، وكانوا مثقفين ثقافة واسعة ، وكانوا أصحاب فطن بارعة ،
فتفتحوا أبواباً لا حصر لها من الجدال في مسائل الدين والعقيدة ، وتحولوا بمعانيهم
يفرغون فيها ويولدون ويأتون بكل جديد مستطرف وبديع مستحسن .

وكان بين هؤلاء الوعاظ من بلغ من الحدق أن جعل مواعظه كلها سجعاً
خالصاً كأسرة الرقاشيين ، وهي أسرة فارسية كانت تحترف القصص في هذا
العصر كما كانت تحترف السجع ، ويقال إنها كانت معروفة في أممها بالخطابة ،
فلما دخلت في الإسلام قامت في لغتنا مقامها في لغتها الأصلية ، وكأنما نزع
أفرادها ذلك العرق القديم ، ومنها يزيد بن أبان الرقاشي وكان قاصاً مجيداً وكان
يتكلم في مجلس الحسن البصري ، وكان عابداً زاهداً ، وهو عم الفضل بن عيسى
الرقاشي ، وفيه يقول الجاحظ : « كان الفضل سجعاً عافياً في قصصه .. وهو
الذي يقول : سئل الأرض فقل .. من شئت أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنتي
ثمارك ، فإن لم تُجيبك حواراً أجابتك اعتباراً »^(٤) وكان خالد بن صفوان التميمي
يسجع كثيراً^(٥) كما كان يسجع غيره من العرب ، ومعنى ذلك أن الرقاشيين
لم يستحدثوا السجع في وعظهم ، وإنما نسجوا فيه على منوال طائفة من فصحاء
العرب وبلغائهم .

ومهما يكن فإن الخطباء الوعاظ والقصاص نمو التعبير البياني ، وكثيراً
ما يقف الجاحظ في بيانه متعجباً من قدرتهم البلاغية ، وقد تعجب طويلاً

(١) البيان والتبيين ١٧١/٣ .

(٢) انظر ٣٤٤/٢ وفي مواضع متفرقة .

(٣) انظر فهرس الأعلام الملحق بالكتاب .

(٤) انظر في الفضل وأسرته البيان والتبيين

(٥) انظر ٣٠٨-٣٠٦/١ وراجع زهر الآداب ٢٢٠/٣

(٥) البيان والتبيين ٩٣/٢ ، ١٦٤/٣ .

من بلاغة واصل بن عطاء وكيف استطاع أن ينزع الرأى من حُطْبِهِ للثغته فيها على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع .

ولم يكن واصل وحده هو الذى أحرز هذا المقدار من البلاغة والبيان ، بل لقد أحرزَه عامة القصاص والوعاظ ، وقد تحولوا يعلمون شباب البصرة والكوفة كيف يتفوقون فى الخطابة ، وكانوا يسألونهم أسئلة كثيرة عن أساليبها وألفاظها وكيف ينبغ الخطيب ، وما ينبغى أن يراعيه فى هيئته وإشاراته ومنطقه ، وكيف يقنع خصومه فى الجدل ويسكتهم ؟ ومتى يستحب الإيجاز فى الخطبة ؟ ومتى يستحب الإطناب ؟ وكيف يلائم الخطيب بين ألفاظه ومعانيه ؟ وكيف يوازن بين كلامه وبين طبقات السامعين ؟ وكيف يجعل لكل طبقة كلاماً ولكل حالة مقاماً ؟ وكيف يقنع خصومه فى المناظرة ويلزمهم الحجة ؟

وهياً ذلك كله لاستنباط طائفة من الوصايا البلاغية نجدها منثورة فى كتاب البيان والتبيين تجرى على ألسنة هؤلاء الوعاظ وخاصة من كانوا يقارعون الخصوم ويمجادونهم ، ونقصد المتكلمين الذين تناقشوا فى القدر والعقيدة طويلاً ، والذين نصبوا أنفسهم لرد على خصوم الإسلام .

ولعل مما يدل على صحة ما نزعم من ذلك أن أقدم النصوص التى تتصل بمهية البلاغة تضاف إلى واعظ من هؤلاء الوعاظ المتكلمين وهو عمرو بن عبيد ، فقد روى الجاحظ أنه قيل له ما البلاغة ؟ فقال لسائله (١) :

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيِّك ، قال السائل : ليس هذا أريد .. قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ فى حسن إفهام ؟ قال : نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المثونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ الحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة

(١) البيان والتبيين ١١٤/١ وانظر المقد

الفريد ٢/٢٦٠ وزهر الآداب ١/٩٤ .

استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ، على الكتاب والسنة كنت قد أُوتيت فصل الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب .

وعلى هذا النحو كان الشباب يتعلمون على هؤلاء الوعاظ كيف يبلغون ما يريدون من حسن الإفهام ومن البيان والطلاقة ، وكيف يحصاؤون ذلك ويميزونه مع جمال المخارج والسلامة من التكلف ، وكان الوعاظ من جانبهم لا يزالون يقدمون لهم النصح والإرشاد ، وقد يدعونهم إلى المناظرة بين أيديهم طلباً لترويضهم وتقرينهم ، على نحو ما صنع الحسن البصرى بواصل وعمرو بن عبيد إذ دعاهما في مجلسه للمناظرة في مرتكب الكبيرة والوصف الذى يستحقه ، حتى يحدقوا الجدال ومناقشة الخصوم والاحتجاج عليهم . وإذا لم يدعوهم إلى الكلام بين أيديهم نثروا عليهم وصاياهم على نحو ما نجد في وصية شبيب بن شيبه التى يذكر فيها أن الناس يعجبون بجودة الابتداء ، أما هو فيعجب بجودة الخاتمة ، ويقول إذا ابتلى الخطيب بمقام لا بد له فيه من الإطالة فأياه والإسهاب إلى درجة الخطل^(١) . ويقول خالد بن صفوان : « اعلم - رحمك الله - أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجمة »^(٢)

ولعل في كل ما قدسنا ما يصور كيف ارتقت الخطاية في بيئات الوعاظ والقصاص ، فقد أخذوا يتدارسونها ويبحثون في أدواتها ووسائلها ، وانبعثوا يخطبون في كل مناسبة ومقام ، موازين بين معانيهم وألفاظهم ، وبين كلامهم ومن يخاطبونهم به من العامة والخاصة . وكان خطباء السياسة من حولهم لا يزالون يجودون في خطاباتهم ، وكذلك كان شأن خطباء المحافل ، حتى ليقولون إن شباب الكتاب في دواوين الخلفاء كانوا يحضرون - إذا قدمت الوفود - لاستماع بلاغة خطابهم^(٣) .

والحق أن هذه البيئات جميعاً أتاحت للخطابة في هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، لعلها لم تعرفه في أى عصر من العصور الإسلامية الوسيطة ، فقد

(٣) المقد الفريد ٤/٤٤٩ .

(١) البيان والتبيين ١/١١٢ .

(٢) المقد الفريد ٢/٢٦١ .

تعاونت جهود خطباء السياسة والمحافل وتعاون معهم الوعاظ والمتكلمون على النهوض بها ، بل لقد نفذ الأخيرون إلى وضع قواعد وتعاليم فيها كانت مقدمة للأبحاث البلاغية التي عرفت في العصر العباسي .

٥

الكتابة في صدر الإسلام

اتخذ الإسلام الكتابة دعامة من دعائمه ، فقال جل شأنه في أول آية نزلت على رسوله صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) وأقسم سبحانه وتعالى بالقلم فقال جلّ وعزّ : (ن والقلم وما يسطرون) كما أقسم بالكتاب فقال : (والطور وكتاب مسطور في رقّ منشور) . وجاءت في الذكر الحكيم كلمات اللّوح والقرطاس والصحف من مثل : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) ومثل : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) .

وشجع الرسول عليه السلام على تعلم الكتابة بطرق مختلفة ، فن ذلك أنه جعل فداء بعض أسرى قريش في بدر ممن تعلموا الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة^(١) . ويجانب ذلك نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بعض أصحابه إلى تعلم اللغات الأجنبية ، ففي البخارى عن زيد بن ثابت : أتى بي النبي صلى الله عليه وسلم حين مقدمه المدينة ، فقيل : هذا من بني النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة (من القرآن الكريم) فقرأت عليه ، فأعجبه ذلك ، فقال : تعلم كتاب يهود ، فإني ما آمنهم على كتابي ، ففعلت ، فما مضى

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٧٠ .

لى نصف شهر حتى حذفته ، فكنت أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له ،^(١) . وقد حفص القرآن على اتخاذ الكتابة في المعاملات ، يقول جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يآب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق) .

وكان للرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من الكُتَّاب تخصصوا بكتابة الوحي ، وكان على رأس هذه الجماعة عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، وكانا إذا غابا كتب له أبي بن كعب وزيد بن ثابت . وكان يكتب له بين يديه في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان . وكان المغيرة ابن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس . وكان عبد الله بن الأرقم ابن عبد يغوث والعلاء بن عقبة الحضرمي يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياهم . وكان حفظة بن الربيع ابن أخي أكم بن صيقي خليفة كل كاتب من كُتَّاب الرسول إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب^(٢) .

ونرى من ذلك أن الكتابة أخذت تستخدم استخداماً واسعاً لا في كتابة القرآن الكريم فحسب ، بل في كتابة كثير من شئون المسلمين ، وكان الرسول عليه السلام يكتب كثيراً من عهود الأمان ومن المعاهدات ، كما كان يكتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام ، وتزخر السيرة النبوية لابن هشام وكتب الحديث والتاريخ بهذه الكتب ، وقد جمعها محمد حميد الله الحيدر آبادي في كتابه النفيس « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » . وقدم لها بدراسة وقف فيها عند معيار الوضع والصحة ، وما دخلها من الانتحال . وقد يكون من صحيحها الذي سلم على الزمن كتابه^(٣) صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود ممن كانوا بالمدينة حين نزوله

(١) فجر الإسلام ص ١٧١ .

(٢) انظر مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ص ١ .

(٣) انظر في ذلك الوزراء والكتاب للجيشياري

(طبعة الحلبي) ص ١٢ .

فيها وكذلك معاهدته التي كتبها بينه وبين قريش عام الحُدَيْبِيَّةِ، وهي تمضي على هذه الصورة^(١) :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطلحنا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض . على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيِّبة مكفوفة^(٢) ، وأنه لا إغلال ولا إغلال^(٣) . وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

وواضح أن الرسول عليه السلام لا يُعْنَى في هذه المعاهدة بتحرير فني ، بل هو يؤدي غرضاً سياسياً في صورة موجزة ، وكذلك كان شأنه في كتبه التي كان يرسلها إلى أمراء العرب ، ونسوق لذلك مثلاً كتابه الذي أرسله إلى وائل ابن حُبَيْرِ الحضرمي وقومه إذ يقول عليه السلام^(٤) :

« من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهة^(٥) من أهل حضرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، في التَّيِّعَةِ^(٦) شاة ، والتَّيِّمَةِ^(٧) لصاحبها ، وفي السُّيُوبِ^(٨) الخُمُسَ ، لاخِلَاطِ^(٩) ، ولا وِرَاطِ^(١٠) ، ولا شِثاقِ^(١١) ، ولا شِغَارِ^(١٢) ،

- | | |
|---|---|
| (١) نفس المصدر ص ١٣ وراجع الطبري ، القسم الأول ص ١٥٤٦ . | (٧) التيمة : الشاة الداجنة غير السائمة أو الراعية . |
| (٢) العيبة : الحفوية ، والعيبة المكفوفة هنا يراد بها الذبة التي لا تنكث . | (٨) السيوب : جمع سيب ، وهو المال المدفون أو المدفن . |
| (٣) إسلال : سرقة ، إغلال : خيانة . | (٩) الخلاط : أن تخلط الغنم أو الإبل بغيرها لتمنع من الزكاة . |
| (٤) انظر حميد الله ص ١٢٨ والبيان والتبيين ٢٧/٢ والعقد ٤٨/٢ . | (١٠) الوراظ : أن توضع الغنم أو الإبل بمبدأ عن أعين من يجمعون الزكاة . |
| (٥) الأقبال : ملوك الجنوب وأمراؤهم ، العباهة : العظام الثابت ملكهم . | (١١) الشناق : الخلاط . |
| (٦) التيعة : الأريعون من الغنم ، وهو أقل ما تجب فيه الزكاة . | (١٢) الشغار : زواج في الجاهلية أبطله الإسلام . |

فمن أجبي^(١) فقد أربي^(٢) . وكل مسكر حرام .

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يعمد في هذا الكتاب إلى تزويق ، إنما يعمد إلى فكرته وتبليغ دعوة الإسلام ورسالته في غير إسهاب ، وفي غير صنعة أو تكلف . فكان كما قال جل شأنه : (قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين) فكان يقصد إلى غرضه بالحروف القليلة والكلمات اليسيرة .

وتبعه الخلفاء الراشدون يهتدون بهديه في كتابتهم وما يعتقدون من معاهدات^(٣) ، فهم لا يقصدون إلى تنميق ، إنما يقصدون إلى إبلاغ أفكارهم في عبارات واضحة الدلالة . وليس من ريب في أننا لا نصل إلى عصر عمر حتى تكثر المكاتبات السياسية ، فهو يكتب قواده وولاته ، وهم يكتابونه كلما جدت مشكلة ، وكان يكتب إليهم أحياناً في سياستهم لمن يحكمونهم ، وكتابه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ذائع مشهور^(٤) .

ونظن ظناً أن عمر وغيره من الخلفاء الراشدين ، وولاتهم ، وقوادهم ، لم يقصدوا في كتابتهم إلى أى ضرب من ضروب التزيين والتنميق ، فقد كان حسبهم أن يؤدوا أغراضهم في لغة جزلة متينة ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض المؤرخين والأدباء أن يدخلوا الزينة والتنميق على بعض ما روه لهم . من ذلك الكتاب الذى ينسب إلى عمرو بن العاص أنه أرسله إلى عمر في وصف مصر ، والذى يقول فيه : « مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر » إلى آخر ما في هذا الكتاب من عبارات أنيقة^(٥) ، فإنه واضح الانتحال على ابن العاص .

وينبغي أن نعرف أن المكاتبات في صدر الإسلام لم تحفظ في سجلات

- (١) أجبي : من الإيجاب وهو بيع الزرع قبل أن يبدو صلاحه .
 (٢) أربي : من الربا .
 (٣) انظر القسم الثانى من كتاب حميداه .
 (٤) البيان والتبيين ٤٨/٢ ، ٢٩٣ وعيون الأخبار ٦٦/١ .
 (٥) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) ٣٢/١ .

مخاصة ، وكان ذلك سبباً في أن تناولها غير مؤرخ وأديب بالتبديل والتحسين ، ومن ثم كان الكتاب الواحد يُروى روايات مختلفة باختلاف الكتب التي ترويه ، وحسب ذوق الراوى وقدرته البيانية .

٦

الكتابة في العصر الأموى

وإذا انتقلنا إلى عصر بنى أمية وجدنا الكتابة ترقى رقيتاً عظيماً ، فقد جدت كثير من المشكلات ، وتعقدت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والعقلية ، إذ تحضر العرب ، وأخذوا يستعبرون كثيراً من النظم الأجنبية ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة .

ونستطيع أن نميز ثلاثة جداول مهمة كانت تمد الحياة العربية في العصر الأموى ، وهى جدول جاهلى يتمثل في الشعر والأيام وتقاليد الجاهليين ، وأقبل كثير من العلماء على هذا الجدول يعبتون منه ، مما هيا لتسجيل الحياة الجاهلية ، وجدول إسلامى يتمثل في تاريخ الإسلام وخطوبه وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وأحاديثه وسيرة الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم ، ثم ما كان من أحزاب سياسية وما لكل حزب من آراء في السياسة والحكم ، وجدول أجنبى يتمثل في معرفة شئون الأمم المفتوحة ونظمها السياسية والاجتماعية والاستعارة منها حسب الحاجة . ولعل أول ما كان من هذه الاستعارة اتخاذ عمر لديوان العطاء أو ديوان الجيش^(١) ، وقد خلفه جيل كانت استعارته أقوى وأكبر ، ونستطيع أن نرمز لصنيع هذا الجيل بما كان من اتخاذ معاوية لدواوين الخراج والخاتم والرسائل^(٢) ، ثم بما كان من تأليف زياد بن أبيه لكتاب في

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري (طبعة (٢) نفس المصدر ص ٢٤ .

الخليج) ص ١٧ .

المثالب^(١) . وكلما مضينا في العصر اتسعت التأثيرات بما لدى الأجانب ، فقد كان العرب ناشرين للدين الإسلامي ، وقد اتصلوا بيهود ومجوس ونصارى وحدثت بينهم وبين هؤلاء جميعاً أحاديث ومناقشات ومحاورات تسرب إليهم في أثناءها كثير من الفكر الأجنبي وخاصة من شُعب الفكر اليوناني في الفلسفة والمنطق ، وقد أخذوا يقفون على طرق استغلال الأرض وغير ذلك من مسائل الحياة العملية ، وعاشوا في القصور وقام الأجانب على خدمتهم وتبئية حياتهم المادية ، واطلعوا على نظم التعليم عندهم وما أنشأوا من مدارس ، وطلب خالد ابن يزيد بن معاوية أن تترجم كتب في الكيمياء^(٢) ، وأمر عمر بن عبد العزيز بترجمة كتيب في الطب^(٣) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة نمت في العصر الأموي نمواً واسعاً ، فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات ، وقد ألفوا فعلاً كتباً كثيرة ، بعضها ديني خالص يتصل بمسائل الفقه والتشريع الإسلامي ، بمن ذلك أننا نجد الرواة ينسبون إلى هشام بن عروة بن الزبير أنه قال : « أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له »^(٤) ونعرف أن موقعة الحرة كانت لعهد يزيد بن معاوية ، وقد ترك زيد بن علي مؤسس مذهب اليزيدية مختصراً في الفقه^(٥) ، ومرّبنا أن المحدثين طوال القرن الأول للهجرة كانوا يختلفون فيما بينهم ، منهم من يكتفي برواية الحديث ومنهم من يدونه ، حتى إذا وصلنا إلى رأس المائة أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينه تلويحاً عاماً ، ومن أوائل من بادروا إلى جمعه ابن شهاب الزهري^(٦) المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة .

وقد نشطت الكتابة التاريخية ، فكتب المؤرخون في مغازي الرسول عليه

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة مصر) (٤) طبقات ابن سعد ١٣٣/٥ .
ص ١٣١ .
(٢) الفهرست ص ٣٣٨ .
(٣) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) طبع
(٤) الزرقاني على موطأ مالك (طبع المطبعة
الخيرية) ١٠/١ .
(٥) ليبرج ص ٣٢٤ .

السلام ، وعلى رأسهم أبان بن عثمان^(١) وعروة بن الزبير ، وهو أول من صنف في تلك المغازي^(٢) ، ثم الزهري^(٣) ، وكلهم من المدينة ، وهذا طبيعي فهي دار النبوة ، وبيت السيرة الذكية . وقد أخذ بعض هؤلاء المؤرخين يتحدثون عن الخلفاء الراشدين والأمويين .

وبجانب مؤرخي السيرة النبوية نجد مؤرخين من اليمن يهتمون بتاريخ موطنهم ، وفي مقدمتهم عبيد بن شريّة الجُرهمي الذي وفد على معاوية وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان ، وهو صاحب « كتاب الملوك وأخبار الماضين »^(٤) ألفه لمعاوية ، وطبع حديثاً في الهند باسم « أخبار عبيد بن شريّة الجُرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » ومن يطلع عليه يجد الخرافة تغلب على أخباره . وتشتهر اليمن في هذا العصر بقصصاتها مثل تميم الداري ، وأشهرهم وهب بن منبّه الذي توفي سنة ١١٤ للهجرة ، وقد كتب كثيراً عن عرب الجنوب كما كتب عن مغازي الرسول ، وأهم من ذلك أنه عُنِيَ بجمع أخبار أهل الكتاب وما يتصل بها من الإسرائيليات^(٥) ؛ وهو مثل عبيد في ملء كتاباته التاريخية بالخرافات ، كما يلاحظ ذلك كل من يقرأ في الكتاب المنسوب إليه المسمى « كتاب التيجان في ملوك حمير » .

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نجد العراق تُعنى بهذه المادة التاريخية جميعها ، كما تعنى بتاريخ القبائل الشمالية وأنسابها وأيامها ، وأيضاً فلإنها عنيت بتاريخ الأحداث في عصر علي بن أبي طالب ثم في عصر بني أمية . وكان مما زاد في هذه العناية وخاصة بتاريخ العرب في الجاهلية وأيامهم وملوكهم وأمراءهم وشعرائهم وخطبائهم قيام علم اللغة وتوفير أصحابه على دراسة أحوال الجاهليين . ولا نلبث أن نجد مؤرخاً كبيراً هو أبو مخنف^(٦) يعنى بتأليف

(١) انظر ترجمة أبان في دائرة المعارف الإسلامية وطبقات ابن سعد ١١٢/٥ .
 (٢) كشف الظنون (الطبعة القديمة) ٦٤٦/٥
 (٣) انظر ترجمة الزهري في دائرة المعارف الإسلامية .
 (٤) الفهرست ص ١٣٢ .
 (٥) كشف الظنون ٤٠/٥ .
 (٦) راجع ترجمة أبي مخنف في معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ٤١/٧ .

كتب كثيرة يقال إنها بلغت اثنين وثلاثين كتاباً ، وأكثرها يتحدث فيه عن أحداث القرن الأول للهجرة ، واحتفظ الطبرى بكثير مما كتبه في تلك الأحداث . ولعل من الطريف أن نلاحظ أن هذه النزعة لكتابة التاريخ عند العرب ظهرت في ظروف مشبهة لظهورها عند اليونان ، فإن من المعروف أن اليونان لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الفرس واتصالهم بالعالم الخارجى ، وكذلك كان الشأن عند العرب فإنهم لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الأمم الأجنبية وفتحهم . وينبغى أن نعرف أن هذا النثر التاريخى عند العرب نثر عربى خالص ، فهم لم يستعبروه من الأجانب ، بل مثلهم فيه مثل اليونان الأقدمين فى نثرهم ونشأتهم فى حجورهم .

وليس معنى ذلك أن الكتابة التاريخية عند العرب لم تتأثر بعناصر أجنبية فى هذا العصر المبكر ، بل لقد أخذت تتأثر بهذه العناصر كما مر بنا عند وهب بن منبه وأضرابه ممن كانوا يتحدثون عن الملوك الأوائل وعن قصص الأنبياء وأخبار شعوبهم ، غير أن هذه العناصر لم توجد هذه الكتابة من عدم ، بل لقد وقف تأثيرها عند تنميتها والتطور بها مع الزمن ، كان موضوعها فى كثير من جوانبها عربياً خالصاً يتصل بسيرة الرسول وأحداث الإسلام أو يتصل بأيام العرب فى الجاهلية وأخبار قبائلهم وملوكهم . وكلما تقدمنا فى الزمن اتسعت هذه العناصر الأجنبية ، فشملت تاريخ الفرس وتاريخ الأمم المفتوحة .

وإذا تركنا الكتابة التاريخية إلى الرسائل وجدناها مثل الخطابة التى عاصرتها ، فقد كانت هناك رسائل سياسية تصدر عن دواوين الخلفاء والولاة أو عن خصوصهم ، ورسائل اجتماعية يتبادلها الناس فى أمور حياتهم الشخصية ، ورسائل دينية ، منها ما يأخذ شكل الموعظة ، ومنها ما يأخذ شكل الحوار والجدل ، حين يتعرض شخص للرد على صاحب نحلة من النحل .

وقد نهضت الرسائل السياسية فى هذا العصر نهضة واسعة ، وهى نهضة تُردُّ إلى سببين : أما السبب الأول فهو أن كثيراً ممن كانوا يكتبونها كانوا يُعدُّون فى الذروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجاج وقطربى بن

الفجاءة والمختار الثقفي ، وأما السبب الثاني فقيام ديوان الرسائل وظهور طبقة من الكتاب المحترفين في هذا الديوان ، لا في دواوين الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً في دواوين الولاة ، وكان قادة الجيوش أيضاً يتخلونهم ، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته . ومعروف أن ديوان الخراج كان يقوم عليه في أول الأمر كتاب من الأجانب ، يكتبون فيه بلغاتهم الأصلية ، حتى إذا كان عصر عبد الملك نُقل هذا الديوان إلى العربية ، فأصبح الشأن فيه كالشأن في ديوان الرسائل يليه العرب ، ولم يلبث الأجانب أن سعوا إلى تعلم العربية وشاركوا في ديوان الرسائل نفسه .

ويقدم لنا كتاب الوزراء والكتّاب للجھشياري أثباتاً طويلة بأسماء من كانوا يلون الديوانين : ديوان الرسائل وديوان الخراج ، وهي أثبات تدل دلالة قاطعة على أن من نهضوا بالكتابة السياسية في هذا العصر إنما هم العرب ، وظلوا على ذلك طويلاً ، حتى أوْشك القرن الأول للهجرة على الزوال ، فشاركهم الأجانب مشاركة بدت قاصرة في أول الأمر ، حتى إذا كان عصر هشام ابن عبد الملك (١٠٤ - ١٢٤ هـ) وجدنا على ديوانه مولى كان يحسن اليونانية وينقل عنها بعض رسائل وهو سالم ، الذي تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب الفارسي الأصل .

ومعنى ذلك أن كتابة الرسائل السياسية الرسمية نشأت في جِجْر العرب ، ونمت تحت أيديهم ، فقد أخذت في الظهور منذ صدر الإسلام ومنذ أن جدّت تلك المشكلات التي اقتضت أن يكتب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه ، وبمضى الزمن أخذت مشاكل الدولة في التعقد ، كما أخذ العقل العربي ينمو ويرقى ، فنمت ورقيت معه تلك الصناعة ، وتوفر عليها جماعة من بلغاء الخطباء كما توفرت عليها جماعة من الكتّاب المحترفين الذين توظفهم الدولة للعناية بها ، وحقاً يقال إن العرب استعاروا نظم الدواوين من لدن الفرس (١) ،

(١) الوزراء والكتّاب للجھشياري

ولكن الفرس مثلهم مثل غيرهم من الموالى لم يوجدوا لهم هذا الفن من كتابة الرسائل السياسية ، إنما أوجدته حياتهم وضرورتها السياسية والإدارية . ومن هنا كنا نرفض رفضاً باتاً رأى بعض المستشرقين الذين يزعمون أن العرب استعاروا كتابتهم السياسية الفنية أو نثرهم السياسى الفنى من لدن الفرس (١) ، فالعرب لم يستعيروا من الفرس ولا من غيرهم نثرهم كما أنهم لم يستعيروا منهم ولا من غيرهم شعرهم ، وكل ما يمكن أن يلاحظ أنهم أخذوا مع الزمن يتأثرون فى نثرهم وشعرهم جميعاً بالأجانب من الفرس وغير الفرس ، وتمّ ذلك بحكم التطور واشتراك هؤلاء الأجانب معهم فى أديبهم ، وما كان من نقل ثقافتهم إلى العربية .

ونحن لا نغلو هذا الغلو الذى جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفنى منذ العصر الجاهلى (٢) ، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن ، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف فى مرحلة وسطى بين الرأيين ، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر العباسى عصر التأثير الواضح بالفرس ، ولا نتقدم بها إلى العصر الجاهلى ، بل نضعها فى مكانها الصحيح الذى تؤيده المستندات والوثائق ، وهو العصر الإسلامى ، حيث أخذت فى الظهور منذ صدره ، كما أخذت فى النمو والازدهار كلما تقدمنا مع الزمن . وإذا كان للفرس أو لغيرهم من الموالى فيها من فضل فهو فضل المشاركة فى النمو بها ، بالضبط على نحو ما صنعوا بالشعر فى العصر العباسى ، ولعل من المهم أن نعرف أن العرب لم يأخذوا عن الفرس فلسفة ولا نحتاً ولا تصويراً ولا شعراً ولا أى فن من الفنون .

وعلى نحو ما نشأت الكتابة السياسية الرسمية ونمت نشأت الكتابة الاجتماعية أو الشخصية وأخذت فى النمو منذ عصر الفتوح ، فإن تفرق العرب فى البلدان

2me. trimestres, 1927).

(٢) النثر الفنى ١/٣٣ - ٤٣ .

(١) انظر النثر الفنى لزكى مبارك ١/٣٤ ،

٤٣/١ وراجع بحثاً لموسى نشره فى :

الإسلامية دفعهم دفعا إلى أن يتكاتبوا في مهامهم وشئونهم الشخصية وفي التهادي والتعزية وفي العظة والعبارة^(١). ومن غير شك كثير ذلك مع مر الزمن، وإن كانت الكتب الأدبية والتاريخية لم تكن بتلك المكاتبات قدر عنايتها بالوسائل السياسية، لأنها في الغالب لا يتعلق بها تاريخ، وأيضاً فإن أصحابها لم يكونوا يقرعونها في الناس ولا كانوا يسجلونها، ومع ذلك نجد آثاراً منها، يرجع بعضها إلى صدر الإسلام، وبعض آخر يرجع إلى عصر بني أمية، وربما كان أبرز كتّابها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر.

أما الكتابة الدينية فقد أصابها ما أصاب الخطابة الدينية من الرقي والازدهار، لسبب بسيط وهو أن كتّابها كانوا هم أنفسهم الذين مروا على الخطابة والجدال والحوار في المسائل الدينية والمذهبية، فأضفوا على كتابتهم نفس الصورة البيانية التي أضفوها على خطابهم، مما نجده ماثلاً في كتابات الحسن البصري وغيره والدمشقي وغيرهما من الوعاظ وأصحاب النحل الذين نهضوا بتمرير اللغة الجربية على كثير من المعاني الدقيقة موازنين بين معانيهم وبين ألفاظهم وما تحتاجه لتأثيرها على وجدان السامع والقارئ من حلاوة وعذوبة.

٧

الصنعة في الكتابة الأموية

رأينا الكتابة في العصر الأموي تعالج موضوعات علمية وتاريخية، كما تعالج رسائل سياسية واجتماعية ودينية، وليس بين أيدينا وثائق صحيحة تصور كيف كانوا يعالجون مسائل العلم والتاريخ، وحقاً مر بنا أنه طُبع لعبيد بن شريّة كتاب في أخبار اليمن كما طبع لوهب بن منبه كتابه التيجان في ملوك حمير.

(١) انظر رسالتين متبادلتين بين الصحابين :

أبي الدرداء و سلمان الفارسي في العقد الفريد

ولكن الكتّابين جميعاً مشكوك في صحة نسبتها إليهما . وربما كان أصحّ منهما وأوثق ما احتفظ به الطبرى في تاريخه الكبير . على أن من يرجع إلى ما رواه عن مؤرخى تلك الفترة يلاحظ أن الكتابة التاريخية كانت لا تزال في أول نشأتها ، وأنها لم تتطور بالسرعة التي تطورت بها الرسائل السياسية والدينية . ومن يقرأ ما أُنثِر من رسائل سياسية لهذا العصر يستطيع أن يلاحظ في وضوح أنها كانت تجرى أول الأمر في الصورة التي كانت تجرى فيها لعهد صدر الإسلام ، فكاتبها أو مملّيتها لا يتأنتق فيها ولا يقصد إلى تفنن أو زخرف في خاص ، إنما يقصد إلى أداء غرضه في عبارة جزلة مصقولة يغلب عليها الإيجاز .

غير أننا لا نكاد نتجاوز منتصف القرن الأول للهجرة ، حتى تتكامل الرغبات للعناية بتلك الرسائل عناية توفّر لها ضرورياً من التجويد والجمال الفني ، وكأنما لم تعد الغاية أن تؤدي أغراضها فحسب ، بل أضيف إلى ذلك غاية أخرى أن تروّع القارئ والسامعين بتحبيرها وتنميقها ، وكأنها قطعة موسيقية أو لوحات تصويرية . ولم يقفوا بذلك عند ظاهرها ، فقد أخذوا ينوعون في معانيها ويفرّعون ، ويطنّبون صوراً مختلفة من الإطناب ، وسرعان ما نسمع أن عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد والى العراق (٦٠-٥٦٤) كان يطيل في رسائله طولاً شديداً^(١) . وظاهرة الطول ظاهرة جديدة لم يكن يعرفها العرب في أديهم إذ كانوا يوجزون قبل عصر عبيد الله بن زياد في شعرهم ونثرهم جميعاً ، أما منذ هذا العصر فقد استمرت ظاهرة الإيجاز في الشعر ، بينما حلت محلها ظاهرة معاكسة في النثر ، وهي ظاهرة لا شك في أنها وليدة التطور العقلي الذي أصابه العرب ، فإذا هم يستطيعون أن يبسطوا آراءهم السياسية وأن يفصلوا في معانيها ضرورياً مختلفة من التفصيل .

وإذا مضينا إلى عصر الحجاج وأغفلنا النظر عن طول الرسائل السياسية وما يُطوّى فيه من صنعة في بسط التعبير ومدّه ونظرنا في الصياغة والأسلوب

(١) تاريخ الطبرى ، القسم الثالث ص ٢٧٠ .

لاحظنا أن بعض هذه الرسائل كان يعتمد على السجع ، فكان الحجاج نفسه يسجع أحياناً كما كان يسجع بعض من يكاتبونه ، ومن خير ما يصور ذلك رسالتان احتفظ بهما الجاحظ في بيانه ، وهما متبادلتان بينه وبين قَطْرِيّ بن الفُجاعة، وقد بُنيتا على السجع الخالص^(١) . وحقاً نجد المختار الثقفى يسجع في رسائله^(٢) ، ولكنه كان يبدو شاذّاً بعض الشيء في هذا الاتجاه ، أما في عصر الحجاج فيظهر أن كثيراً من الكتاب كان يبنى كتابته عليه ، ولعلّ مما يدل على ذلك أن نجد ابن الأشعث حين ثار على الحجاج وأعد جيشاً لحربه ، يقول لكتابه ابن القريّة: « إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسججاً أعرفه فيه سوء فعاله وأبصره قبح سريرته » ويصدق ابن القرية بأمره ، ويرد عليه الحجاج برسالة مسجوجة أيضاً^(٣) . وقد لا يسجع الكاتب ، ولكنه لا يزال يفكر في طريقة يلفت بها القارئ والسامع ، فقد حدثنا الرواة أن يزيد بن المهلب في أثناء بعض حروبه فكر أن يكتب إلى الحجاج كتاباً ، وكان يكتب له يحيى بن يعنمر ، وهو عربيّ ومن أوائل من عُنيوا بوضع قواعد العربية^(٤) فلما أمره يزيد بالكتابة إلى الحجاج وأن يعلمه بما صنعوا في الحرب كتب إليه هذه الرسالة القصيرة^(٥) :

« إنا لقينا العدو ، ففتحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة وأسرننا طائفة ، ولحقت طائفة برعوس الجبال وعرائر^(٦) الأودية وأهضام^(٧) الغيطان ، وبيتنا بعرعر^(٨) الجبل ، وبات العدو بمحضيضه » .

ولما قرأ الحجاج الرسالة أعجب بها إعجاباً شديداً ، وأرسل إلى يحيى يطلبه على البريد ، فلما جاءه سأله : من أين لك هذه الفصاحة ؟ وهي فصاحة

(١) البيان والتبيين ٢/٣١٠ .
 (٢) انظر الطبرى في سنة ٦٦ هـ .
 (٣) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن)
 ص ٣٢٣ .
 (٤) أخبار التحوين البصريين للسيرا في (طبعة)
 (٥) كرئكو (ص ٢٢ .
 (٦) البيان والتبيين ١/٣٧٧ .
 (٧) عرائر الأودية : أسافلها .
 (٨) أهضام الغيطان : مداخلها .
 (٩) عرعر الجبل : أعلاه .

كانت تعتمد على اللفظ الغريب . ونحن لا نُشغى على الإغراب في الألفاظ ولكننا نستدل من هذه الرسالة الموجزة على أن الكتّاب في عصر الحجاج كانوا لا يزالون يفكرون في صنعة أساليبهم ، فتارة يعمدون فيها إلى السجع ، وتارة يعمدون فيها إلى الإغراب اللفظي . فالكتّاب لا يفكر في أداء معانيه فحسب بل يفكر في تنميقها وتزيينها بضروب من الحلية ، كل حسب ذوقه ، وكان يحيي بن يعمر لغويّاً ، وكان ذوقه ذوق لغويين فعمد إلى ألفاظ غير مألوّفة كى يروع الحجاج ويملك عليه لُبه ، ونفذ فعلاً إلى ما أراد ، إذ كان الحجاج يميل أحياناً إلى التفاسح بالغير ، على نحو ما مر بنا في خطبته بالكوفة التي بدأها بأرجاز تزخر باللفظ الحوشي .

ولم يكن الحجاج يعمد إلى السجع في كتبه ورسائله دائماً ، بل لعل ذلك إنما كان في القلة وفي الحين بعد الحين ، أما الكثرة فتخلو من السجع . وليس معنى هذا أنه كان يتخلص من محاولة التأنق والتنميق ، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائماً ، وكان يتخذ إليه الإغراب في اللفظ حيناً ، وحيناً يتخذ ما سبق أن لاحظناه في خطابته من الصور والاستعارات الطريفة ، ومن خير ما يصور ذلك عنده ما رواه الجاحظ في خاتمة بيانه من أنه كتب إلى عبد الملك بهذه الرسالة^(١) :

« أما بعد فإننا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وابل^(٢) منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا ، إلا ما بقلّ وجه الأرض من الطّش والرّش والرّذاذ^(٣) ، حتى دقمت^(٤) الأرض واقشعرت^(٥) واغبرت^(٦) ، وثارت في نواحيها أعاصير تدرو^(٧) دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها^(٨) وامتناعها . وأرضنا أرضٌ سريعٌ تغييرها ، وشيكٌ تنكّرها ، سيّئٌ ظنُّ

(١) البيان والتبيين ٩٩/٤ .
 (٢) وابل : مطر شديد .
 (٣) الطّش : المطر القليل : ونحوه الرّش والرّذاذ .
 (٤) دقمت الأرض : أصبحت لا نبات فيها .
 (٥) اقشعرت : تقبضت من الجذب .
 (٦) اغبرت : من الغبار .
 (٧) تدرو : تسق وتحمل .
 (٨) اعتزازها : امتناعها ، أولعله من العزاز وهي الأرض الصلبة .

أهلها عند قحوظ المطر ، حتى أرسل الله بالقبول^(١) يوم الجمعة ، فأثارت زبرجاً^(٢) متقطعا متمصراً^(٣) ، ثم أعقبته الشمال^(٤) يوم السبت ، فطَاحَطَحَتْ^(٥) عنه جهامه^(٦) ، وألَّهَتْ متقطَّعه ، وجمعت متمصَّره ، حتى انتضد^(٧) ، فاستوى ، وطما وطحا^(٨) ، وكان^(٩) جنونا^(١٠) مرثعنا^(١١) قريباً رواعده . ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل^(١٢) ، يردف^(١٣) بعضه بعضاً ، كلما أردف شؤبوب^(١٤) أردفته شأبيب^(١٤) بشدة وقعه في العراض^(١٥) . وكتبت إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قطع القطن ، قد ملأ اليباب^(١٦) ، وسدَّ الشعاب^(١٧) وسقى منها كل ساق . فالحمد لله الذي أنزل غيَّثه ، ونشر رحمته من بعدما قنظوا^(١٨) وهو الولي الحميد . والسلام .

وواضح أن هذه الرسالة ليست مسجوعة ، ولكنها مع ذلك قد أحكمت صنعها ، سواء من حيث اختيار ألفاظها والذهاب بها مذهب الغريب المقبول ، أو من حيث دقتها في تصوير الجذب ثم نزول الغيث ، وهو تصوير لاشك قد فكر فيه الحجاج طويلاً ، قبل أن يحكمه ويضبط التشبيهات والاستعارات التي تمثله ، وكأنه شاعر يجمع أشاتات خياله ، ليؤلف هذه اللوحة البديعة .

ولم تبلغ صنعة الرسائل هذا المبلغ من الإتقان عند الحجاج وحده ، فقد كان يشركه في ذلك معاصروه من الولاة والقواد وكتَّابهما ، بل من الخلفاء

- | | |
|--|--|
| (١) القبول : الريح الشرقية . | (١٠) الجون : الأسود . |
| (٢) الزبرج : السحاب الرقيق الخفيف . | (١١) مرثعناً : مسترسلاً سائلاً . |
| (٣) متمصراً : متقطلاً . | (١٢) منسجل : منصب . |
| (٤) الشمال : الريح الشمالية . | (١٣) يردف : يتبع . |
| (٥) طحطحت : فرقت وبددت . | (١٤) الشأبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر . |
| (٦) الجهام : السحاب لأماء فيه . | (١٥) العراض : جمع عرض بضم العين وهو الناحية . |
| (٧) انتضد : تراكت طبقاته بعضها فوق بعض . | (١٦) اليباب : الخالي الذي لا شيء فيه . |
| (٨) طما : امتلاً وزخراً ، وطحا : اذبسط وبلأ الجو . | (١٧) الشعاب : المسالك والسبل . |
| (٩) كان هنا بمعنى صار . | (١٨) قنظوا : ينسوا . |

أنفسهم ، فقد روى الجاحظ في بيانه رسالتين متبادلتين بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص حين ثار عليه ، وليستا مسجوعتين ، ولكن أثر الصنعة والتأنيق باد عليهما^(١) ، ومعنى ذلك كله أن الكتاب أصبحوا منذ هذه الحقبة من العصر يتفننون في رسائلهم ، ويحاولون جاهدين أن تلمع عليها أثارة من الجمال الفني .

وإذا مضينا إلى أوائل القرن الثاني للهجرة وإلى عصر هشام بن عبد الملك (١٠٤-٨١٢٤) وجدنا على رأس ديوانه مولى له يسمى سالماً^(٢) ينهض بكتابة هذه الرسائل السياسية نهضة واسعة ، وكان يعرف اليونانية وترجم منها بعض رسائل لأرسططاليس^(٣) ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأوّل في تاريخ العرب وأدبهم^(٤) ، ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة^(٥) ، غير أن هذه الرسائل لم تصلنا ، ولولا أن الطبرى احتفظ لنا برسالة كتبها عن هشام إلى خالد القسرى^(٦) لم نكد نعرف شيئاً واضحاً عن فنه وبيانه ، ومن يرجع إليها يلاحظ أنه عُنِيَ بأسلوبه عناية تشبه عناية الوعاظ من أمثال الحسن البصرى بأسلوبهم وما كانوا يوفرون له من الازدواج والترادف الصوتى ، وكان يتكى على الحال اتكاء شديداً في صياغته .

وليس تحت أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نحكم على مدى التأثير اليونانى في كتابة سالم ، وإن كان يُظنّ أن هذا التأثير كان عميقاً ، وقد تخرّج عليه عبد الحميد أنه كتاب العصر وأشهرهم ، وسنعرض له عما قليل . على أنه ينبغي أن نلاحظ هنا شيئاً مهماً ، وهو أن التأثير الأجنبى في الكتابة العربية الفنية لم يدخل أول الأمر عن طريق الفرس وكاتبهم ابن المقفع ، مما جعل بعض المستشرقين يزعم أنهم هم الذين أعاروا العرب هذا الفن النثرى ، بل لقد دخل كما نرى الآن عن طريق سالم الذى كان يحذق اليونانية . ولعل في ذلك ما يدل

(١) البيان والتبيين ٨٧/٤ .
 (٢) الوزراء والكتاب للجهمياري ص ٦٢ .
 (٣) الفهرست ص ١٧١ .
 (٤) الفهرست ص ١٨٢ .
 (٥) الفهرست ص ١٧١ .
 (٦) الطبرى ، القسم الثانى ص ١٦٤٢ .

على ما نذهب إليه من أن الكتابة الرسمية الفنية عند العرب لم تأتيم من الخارج ، فقد نشأت في حجورهم بحكم حياتهم الإسلامية والسياسية الجديدة ومشاكلها المختلفة ، فالأجانب لم يبتكروها لهم ، بل كل ما هنالك أنهم أسهموا معهم فيها ، وتأخر هذا الإسهام إلى أن ظهر سالم وأشباهه .

ولم تكن الرسائل السياسية وحدها هي التي يطرد لها النمو والازدهار ، بل شاركتها في ذلك الرسائل الاجتماعية أو الشخصية ، لسبب بسيط ، وهو أن من كانوا يكتبونها كانوا يعيشون في تلك الحقب التي أخذ البلغاء يهتمون فيها بتنميق أساليبهم وإبداعها ضرورياً من البيان والفصاحة ، ونسوق مثلاً لها رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى رجل من إخوانه^(١) :

« أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك . ابتدأتني بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبني جفاء عن غير ذنب ، فأطمعني أولك في إخالئك وأياسني آخرك من وفائك ، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطّراحاً ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افرقنا على اختلاف . والسلام . »

والرسالة على قصرها يتضح فيها جهد كاتبها في تحبيرها ، فقد بناها على الطباق والمقابلة بين المعاني والألفاظ ، والتوازن بين العبارات والكلمات الفصيحة ذات المخاج الحسنة ، وكان شاعراً بيناً وخطيباً لسيئاً ، فأضفى من لسنه وبيانه على رسالته .

وإذا تركنا الرسائل الاجتماعية الشخصية والسياسية الرسمية إلى الرسائل الدينية والجدلية وجدنا أصحابها هم أنفسهم أرباب البيان والبلاغة من الخطباء المفوهين أمثال الحسن البصري وغيلان الدمشقي .

وكانت هذه الرسائل تستخدم الأسلوب المزدوج الذي يأخذ بأطراف من التصوير والطباق ، والذي سبق أن لاحظناه في خطابة الحسن البصري

(١) البيان والتبيين ٢/٨٤ - ٨٥ وزهر

وأضرابه ، ونسوق مثالين منه ، أما أولهما فما كتب به الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في صفة الإمام العادل ، وهو يطرد على هذه الشاكلة (١) :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِيَام كلِّ مائلٍ وقَصْد كلِّ جائرٍ ، وصلاح كلِّ فاسدٍ ، وقوة كلِّ ضعيفٍ ، ونصفه كلِّ مظلومٍ ، ومفزع كلِّ ملهوفٍ . والإمام العدلُ يا أمير المؤمنين كالمراعي الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر (٢) . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تاره ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغمُّ بشكايته . . . »

وتحمل هذه القطعة من الرسالة كل الخصائص التي سبق أن تحدثنا عنها في خطابة الحسن ، ففيها الأزواج والترادف الصوقي والتكرار ، وفيها التقابل والطباق والتشبيات وغير ذلك من حُلَى بيانية . وقد مضى الحسن يقتبس فيها من آي الذكر الحكيم ما يصور به فكره ويوشى به تعبيره . أما المثال الثاني فنسوقه من رسائل غيَّسان الدمشقي ، إذ يقول (٣) :

« إن التراجع في المواعظ يوشك أن يُذهب يومها ويأتي يوم الصاخة (٤) ، كل الخلق يومئذ مُصبيخ (٥) ، يستمع ما يُقال له ويُقضى عليه (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) . فاصمَّت اليوم عما يُصمتك يومئذ ، وتعلمت ذلك حتى تعلمه ، وابتغته حتى تجده ، وبأدر قبل أن تفجأك دعوةُ

(٤) يوم الصاخة : يوم القيامة .

(٥) مصبيخ : مرهف أذنه وسمعه .

(١) العقد الفريد ١/٣٤ .

(٢) القر : البرد .

(٣) عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .

الموت ، فإنها عنيفة إلا بمن رحم الله . وياربَّ متعبد لله بلسانه معاد له بفعله ، ذلول في الانسياق إلى عذاب السَّعير في أمنية أضغاث^(١) أحلام يعبرها بالأمانى والظنون ، فاعرف نفسك .

وهذه القطعة بدورها ترينا مدى احتفال الوعاظ برسائلهم وما كانوا يؤدون فيها من ضروب الجمال الفني ، ويقول صاحب الفهرست إن رسائله كانت في ألى ورقة^(٢) . ولا نرتاب في أن هذه الرسائل وما يماثلها من مواظ الحسن البصرى وأضرابه هي التي استعار منها سالم وتلميذه عبد الحميد أسلوبهما الكتابي في الرسائل السياسية ، فإننا نجدهما يكتبان من نفس النمط ونفس النموذج ، وهو النموذج الذي شاع طوال القرن الثاني بين الكتاب العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ ، ونقف قليلا لتحدث عن عبد الحميد الكاتب في إيجاز .

٨

عبد الحميد الكاتب وخصائصه الفنية

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشي ، ويقول من كتبوا عنه إنه يرجع إلى أصول فارسية^(٣) وإنه كان من أهل الأنبار وسكن الرقة^(٤) ، وكان في أول أمره يتنقل في البلدان معلماً في الكتاتيب^(٥) ثم التحق بديوان الرسائل في دمشق لعهد هشام بن عبد الملك ، حيث خرجته ختته سالم مولى هشام ورئيس هذا الديوان^(٦) . واتصل بمروان بن محمد وكتب له أيام كان

(١) أضغاث : أخلاط .

(٢) الفهرست ص ١٧١ .

(٣) المسالك والممالك للإصطخرى (طبعة

ليدن) ص ١٤٥ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة

الميمنية ١٢/٣٠٧ .

(٥) نفس المصدر ١/٣٠٧ والفهرست ١٧٠ .

(٦) وفيات الأعيان ١/٣٠٧ والوزراء

والكتاب ص ٦٢ .

والياً ، فلما صارت إليه الخلافة أقامه على ديوانه ، فنهض بالعمل فيه خير نهوض .

ولما دارت الدوائر على مروان وانتصرت عليه الجيوش العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني في موقعة الزاب ظل مخلصاً له وفيئاً ، ففر معه إلى مصر حيث قُتلا في موقعة بوصير^(١) . ويروى المسعودي أن مروان قال له حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بي ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يدعونهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعي حياتي صنعت ، وإلا لم تعجز عن حفظ حرّمي بعد وفاتي ، فقال له عبد الحميد : إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين بك وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر ، حتى يفتح الله أو أقتل معك ، وأنشد :

أسرُّ وفاء ثم أظهر غُدْرَةَ فن لي بِعُدْوِيٍّ يوسع الناسَ ظاهرُهُ^(٢)

وفي ابن خلكان رواية أخرى تزعم أن عبد الحميد اختفى بعد مقتل مروان في الجزيرة ، فوقف عليه السفاح وعذّبه حتى مات^(٣) ، ويروى الجهشيارى أنه اختفى عند ابن المقفع ففاجأهما الطلب ، وأُخذ عبد الحميد^(٤) . والصحيح ما ذكرناه أولاً من أنه قُتِل في بوصير مع مروان .

وعبد الحميد أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم ، وقد ضُربت ببلاغته الأمثال ، فقيل فُتحت الرسائل بعبد الحميد ، وختُمت بابن العميد^(٥) ، ويقول ابن النديم : «عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل»^(٦) . ويَزعم المسعودي أنه أول من استخدم التحييدات

ص ٧٩ .

(٤) الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٥) اليتيمة للثعالبي (طبعة الصاوي)

١٣٧/٣ .

(٦) الفهرست ص ١٧٠ .

(١) وفيات الأعيان ٣٠٧/١ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي (طبعة دار

الرجاء) ١٧٨/٣ والوزراء والكتاب ص ٧٩

وعيون الأخبار ٢٦/١ .

(٣) وفيات الأعيان وانظر الوزراء والكتاب

في فصول الكتب^(١) . والحق أنه القمة التي وصلت إليها الكتابة الفنية في العصر الأموي ، إذ كان زعيم البلاغ في عصره غير مدافع . وقد بقيت منشورات من رسائله تشهد بفصاحته ولسّنه ومقدرته على التعبير والبيان مع الفخامة والطلاوة ، من ذلك رسالة وجهها إلى عمّال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج ، ورسالة ثانية يصف فيها رحلة صيد وقد تأثر فيها تأثراً شديداً بوصف شعراء الجاهلية للصيد وكلابه وجوارحه . ورسالة ثالثة تقدم بها إلى الكُتّاب^(٢) ، ضمنها وصايا مختلفة لهم ، وهي تدل على نمو طبقتهم وأنهم أصبحوا يؤلفون جماعة بارزة في حياة الدولة ووظائفها وأعمالها المتنوعة . ونراه يستهلهما بأن صناعتهم أشرف الصناعات ، إذ بهم ينتظم الملك وبتدبيرهم وسياستهم يستقيم الحكم ، وينصحهم أن يتحلوا بخلال الخير وخصال الفضل ، ويخوض فيما ينبغي أن يتقنوه من صنوف المعرفة والثقافة ، يقول :

« فنافسوا معشر الكُتّاب في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإنها ثِقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حِلْيَة كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين على ما تسمون إليه بهمكم ، ولا يضعفنَّ نظركم في الحساب فإنه قوام كُتّاب الخراج منكم » .

وفي ذلك الدلالة البينة على أن الكاتب في عصر عبد الحميد كان لا يستطيع أن يحسن وظيفة الكتابة إلا إذا ألم بالثقافة الإسلامية وثقافة العرب الأدبية من خطابة وغير خطابة ومن أيام وغير أيام ، وأخبار الأمم الأجنبية ومعارفها ، ولا بد أن يعرف الحساب وأن يروى الأشعار ويقف على غريبها ومعانيها ، فيفيد منها كما أفاد عبد الحميد نفسه في رسالة الصيد إذ نثر فيها كثيراً من معاني الشعر القديم . فالكتابة لم تعد عملاً سهلاً بسيطاً ، بل أصبحت عملاً معقداً ، لا بد فيه من إعداد ومن تثقف تام بالقرآن الكريم وأوامر الشريعة وبالآداب العربي

(٢) الوزراء والكتاب ص ٧٣ وما بعدها .

(١) مروج الذهب ٣/ ١٧٨ .

وكنوزه الثرية والشعرية والآداب الأجنبية . وليس هذا كل ما يلفتنا في الرسالة ، فقد تحدث عبد الحميد طويلاً عما ينبغي أن يأخذ به الكاتب نفسه في سياسة الناس وتديير شؤونهم ، كما تحدث عما يمكن أن نسميه آداب اللياقة بالقياس إلى الخلفاء . والرسالة في مجموعها تتصل مباشرة بما أثر من وصايا ملوك الفرس لكتّابهم ، مما رواه الجهشيارى في مقدمة كتابه الوزراء والكتاب ، ولذلك كنا نظن ظناً أن عبد الحميد يتأثر فيها بتلك الوصايا ، ولعل هذا هو الذي جعل صاحب الصناعتين يزعم أنه « استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، فحوّلها إلى اللسان العربي » (١) ونصّ الجاحظ في بيانه على أنه ترجم بعض كتب من الفارسية (٢) ، ولا بد أن تكون هذه الكتب متصلة بعمله من الكتابة الأدبية . وربما كان من أطرف ما نقرؤه في رسالته إلى الكتّاب الآنفة الذكر أننا نراه يدعوهم إلى تأليف ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد طلب إليهم أن يعطفوا على من يتنبؤ به الزمان منهم ، وأن يواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ويثوب أمره . والرسالة بذلك دستور واسع للكتّاب يصور واجباتهم الخلقية والثقافية ، وعلى هديها كتبت فيما بعد كتب أدب الكاتب والكتّاب لابن قتيبة والصول وغيرهما .

وربما كانت أهم رسالة سياسية وصلتنا عنه رسالته التي بعث بها عن مروان ابن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي الذي ثار في العراق وامتدت ثورته إلى الموصل عام ١٢٨ للهجرة ، وهي رسالة كبيرة ، وكان عبد الحميد أراد بها أن يضع دستوراً لتنظيم قواد الدولة لجيوشهم من الوجهتين : المادية والحربية ، والرسالة تقع في نحو أربعين صحيفة ، فهي أطول رسالة أثرت عن عصر بني أمية ، إذ امتد فيها نفس عبد الحميد إلى كثرة واسعة من الصحف ، فصّل فيها الحديث عن آداب القادة وتصريفهم للمسائل الحربية ، وأطال في بيان ذلك ، حتى غدت

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري (طبعة) (٢) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

الرسالة أشبه ما تكون بكتاب مستقل .

وهذا الطول المسرف في الرسالة جعل خصائص عبد الحميد في منه الكتابي تبدو واضحة تمام الوضوح ، إذ نرى الخاصة من خصائصه تنبسط تحت عين القارئ انبساطاً واسعاً . وقد قسمها ثلاثة أقسام كبيرة قسم يصور القائد وما ينبغى أن يكون عليه من آداب في سلوكه مع نفسه ثم مع حاشيته ورؤساء جيشه ، وأثر الثقافة الفارسية وما عرف عن آداب الفرس في الملك والسياسة بين في هذا القسم . أما القسم الثاني فخاص بسياسة القائد لجيشه وما ينبغى أن يتخذ فيه من شرطة وقضاة ورجال مال . وأما القسم الثالث فقد تحدث فيه عن التنظيم الداخلي للجيش وكيفية إعداده في وحدات كل وحدة مائة ، وهو نفس النظام الحربي الذي كان متبعاً عند البيزنطيين ، مما جعل طه حسين يظن أن عبد الحميد يتأثر في هذا النظام برسائل الحرب عند اليونان . وذهب يلتمس صلة عبد الحميد بالثقافة اليونانية في تقسيم كلامه إلى فصول بحيث يؤدي كل فصل فكرة تامة . وهي خاصة في رأيه من خصائص النثر اليوناني القديم ، وأيضاً فإنه وجده يستخدم الحال استخداماً مسرفاً ، على شاكلة استخدام اليونان له ، يقول : « وهو لا يقتصد في استعمال الحال ، وإنما هو يعتمد عليها في تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها وتجميل الكلام وإظهار الموسيقى »^(١) .

وأغلب الظن أن عبد الحميد في ذلك كله إنما كان يقلد أستاذه سالمًا في كتابته ، فصلة سالم باليونانية مقررة ، ومرّب بنا أنه كان يسرف في استخدام الحال كما تشهد بذلك إحدى رسائله ، وقد أثرت عن ابنه عبد الله رسالة^(٢) تسرف أيضاً في استخدام الحال وكأنها كانت لازمة من لوازم سالم ، وتأثر به فيها تلميذان له ، أحدهما من بيته وهو ابنه عبد الله وثانيهما من غير بيته وهو عبد الحميد . أما مسألة تنظيم الجيوش إلى وحدات كل وحدة مائة فلعل عبد الحميد عرفها كما عرفها معاصروه عن طريق ما كانت تتبعه الجيوش البيزنطية في عصره

(١) من حديث الشعر والنثر لطلح حسين (٢) الكامل للمبرد ص ٧٩٣ .
ص ٤٠ وما بعدها .

في عصره من تنظيم حربى وكانت الحرب قائمة بينهم وبين العرب لا يهدأ أوارها . ونحن نقف في منزلة وسطى بين طه حسين ومن كتبوا عن عبد الحميد من القدماء ، فقد أجمعوا على أنه كان فارسياً وأنه نقل عن الفرس بعض رسائل أدبية ، وإذا فهو في نثره يتأثر الفرس تأثراً مباشراً لا شك فيه ، أما تأثره باليونان فلعله جاءه عن طريق أستاذه سالم الذى كان يحذق اليونانية ، وهى تظهر عنده في التزامه المنطق الدقيق في تقسيم كلامه إلى أجزاء متميزة وفقر متناسقة ، لا يظهر فيها أى نُبوء ، ولا يداخلها أدنى شىء من استطراد أو تشعث . وفى رأينا أن سالماً هو الذى اتبع ذلك أولاً في رسائله بحكم ثقافته اليونانية ، ثم حاكاه تلميذه ، كما حاكاه في لازمة الحال وفي أسلوبه الموسيقى الذى يقوم على الازدواج والترادف الصوتى ، وهو أسلوب سبق إليه الوعاظ من أمثال غيلان الدمشقى والحسن البصرى ، ونقله عنهم سالم في كتاباته ، وجاراه تلميذه عبد الحميد فيه ، حتى أوفى به على غايته ، فبهر معاصريه ومن خلفهم . وانظر إليه يقول في مطلع هذه الرسالة السياسية الطويلة (١) :

« اعلم أن للحكمة مسالك تفضى مضايق أوائلها بمن أمها سالكاً ، وركب أخطارها قاصداً ، إلى سعة عاقبها ، وأمن سرحها (٢) ، وشرف عزها ، وأنها لا تُعار بسخف الخفّة ولا تنشأ بتفريط الغفلة . . واعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثراً بها ، وإضمار طاعته منظوياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكرآ له ، مرتبطاً فيه بحسن الحياطة له والذب عنه من أن تدخلك منه سامة ملال ، أو غفلة ضياع أوسنة هاون ، أوجهالة معرفة ، فإن ذلك أحق ما بدئ به ونظرفيه معتمداً عليه بالقوة والآلة والعُدّة ، والافتراد به من الأصحاب والحامّة ، فتمسك به لاجئاً إليه ، واعتمد عليه مؤثراً له ، والتجئ إلى كنفه متحيزاً إليه ، فإنه أبلغ ما طلب به رضا الله ، وأنجحه مسألة ، وأجزله ثواباً ، وأعوذه نفعاً ، وأعمه صلاحاً . »

(١) صبح الأعشى للقلقشندي ١٩٥/١٠ (٢) السرح : المال السام . وما بعدها .

وواضح أن عبد الحميد يعتمد على خاصة الترادف الموسيقى ، فالفكرة تؤدَّى لا في عبارة واحدة ، وإنما في عبارتين أو عبارات ، حتى يكتسب الأسلوب ضرباً من التوقيع والتعادل الصوتي ، فإذا العبارات تتلاحق متوازنة متعادلة تعادلاً موسيقياً رائعاً ، يُرضى الأذن والشعور . وهو أثناء ذلك يعتمد على الحال اعتماداً مسرفاً لا نعرفه عند الوعاظ ولا عند من سبقوهم وعاصروهم من الخطباء ، إنما نعرفه عند سالم وابنه عبد الله ثم عند صاحبنا ، وكأنها أصبحت لازمة من لوازم تلك المدرسة .

ويوشى عبد الحميد أسلوبه بحلية التصوير وما يدمج فيه من استعارات ، وبحلية الطباق والمقابلة ، بالضبط على نحو ما كان يصنع الحسن البصري وغيلان الدمشقي وأضرابهما في رسائلهم ومواعظهم ، ومن رسائله الطريفة التي تصور مهارته البيانية تصويراً دقيقاً رسالته الشخصية إلى أهله ، وهو منهزم مع مروان يعزيمهم عن نفسه (١) :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكفر والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درّت (٢) له بحلاوتها وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ، ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قرصته بأظفارها ، وعضّته بأنيابها ، وتوطّأته بِثِقْلِهَا ، قَتَلَهَا (٣) نافرأ عنها ، وذمّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستريداً منها . وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درّها أفأويق (٤) استحليناها ثم شَمَسَت (٥) منا نافرة ، وأعرضت عنا متنكرة ، ورحمتنا (٦) مولية ، فلُحَّ عذِّبها ، وأمرّ حُلُوها ، وخشُنَ لينها ، وفرّقنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان . فدارنا نازحة ، وطسّرنا بارحة (٧) ، قد أخذت كل ما أعطت ، وتباعدت مثلما تقربت ، وأعقت بالراحة نصباً (٨) ، وبالجلد (٩) همماً ، وبالآمن خوفاً ،

- (١) الوزراء والكتّاب للجيشياري ص ٧٢ .
 (٢) درت : من الدر وهو اللبن .
 (٣) قلاها : أبغضها .
 (٤) أفأويق : ما يتجمع في الضرع من اللبن الذي يجلب .
 (٥) شمت : من شمس الفرس إذا منع ظهره .
 (٦) رحمتنا : من رجع الفرس إذا رفعه .
 (٧) الطير البارحة : التي تمر من اليمن إلى اليسار ، وكان العرب يتشاءمون بها .
 (٨) نصباً : تعباً .
 (٩) الجلد : السرور .

(٥) شمت : من شمس الفرس إذا منع ظهره

وبالعز ذلاً ، وبالجدّة^(١) حاجة ، والسّراء ضرّاء ، وبالحياء موتاً ، لا ترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لأوبة له ، منفيين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحياء .

وخصائصُ عبد الحميد جميعها واضحة في هذه الرسالة القصيرة ، ففيها لازمة الحال ، وفيها جودة التقسيم ودقة المنطق ، وفيها الطباق ومقابلاته والصور وألوانها وخاصة لون الاستعارة ، وفيها الازدواج والترادف الموسيقي الذي يتيح لعباراته فنوناً مختلفة من الإيقاعات والموازنات الصوتية . وبذلك كنت تقرؤه ، فيلذ عقلك لدقة معانيه ، ويلذ شعورك بحمال تصويره وجمال موسيقاه .

ونحن لا نقول كما قال السابقون إن الرسائل بُدئت بعبد الحميد ، فقد بدأت منذ فاتحة العصر الإسلامي ، وقام عليها بلغاء كثيرين أتاحوا لها النماء وضروباً من الازدهار . ومن ثمّ كنّا نرفض أوليته في الرسائل ديوانية وغير ديوانية ، ولكننا بعد ذلك ثبت له أنه كان القمة التي وصلت إليها نهضة الكتابة في العصر الأموي ، لما صارت إليه عنده من هذا اليسر وتلك المرونة في أداء المعاني التي كان يجتلبها من الأدب الفارسي والتي كان يعبر عنها تعبيراً منطقيّاً دقيقاً ، لا استطراد فيه ولا حشو ولا نبوّ بأى وجه من الوجوه ، وأيضاً لما أتاح لها من هذا الأسلوب التصويري الموسيقي ، فإذا الكتابة عنده تروق العين والأذن كما تروق العقل والقلب . ومن غير شك هيأت لذلك كله عنده بيئات الوعاظ ، كما هيأت له أستاذه سالم ، ولكن ذلك لا يضيره ، فحسبه أنه كان يملك لغته ويصرّفها في أداء معانيه كما يشاء ، كما كان يملك أسلوبه وينظّمه تنظيمًا تصويرياً وموسيقياً بديعاً ، مما جعله ينفذ بصنعة الرسائل إلى كل ما كان يريده أصحابها من تنويع في معانيها على أساس من المنطق الدقيق وجمال في أساليبها على أساس من التصوير الطريف والإيقاع الصوتي الأنيق .